العاصفة

لجبران خليل جبران

***

١

كان يوسف الفخري في الثلاثين من عمره عندما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيداً متزهداً صامتاً في تلك الصومعة المنفردة القائمة عَلَى كتف وادي قاديشا في شمال لبنان ·

وقد اختلف سكان القرى المجاورة في امره فمنهم من قال — « هو ابن اسرة شريفة مثرية وقد احب امرأة فخانت عهده فهجر الديار وطلب الخلوة توصلاً الى السلوان » · ومنهم من قال — « هو شاعر خيالي قد انصرف عن ضجة الاجتماع ليدون افكاره وينظم عواطفه » · ومنهم من قال — « هو متصرف متعبد قد اقتنع بالدين دون الدنيا » ·ومنهم من اكتفى بقوله— « هو مجنون »

اما انا فلم اكن من رأي هذا ولا ذاك لعلمي ان في داخل الارواح اسراراً غامضة لا تكشفها الظنون ولا يبوح بها التخمين · غير انني كنت اتمنى لقاء هذا الرجل الغريب واشتهي محادثته · وقد حاولت مرتين التقرب

اليه لاستطلع حقيقته واستفسر مقاصده وامانيه ، فلم أظفر منه بسوى نظرات حادَّة وبعض ألفاظ تدل عَلَى الجفاء والبرودة والترفع · ففي المرة الاولى ، وقد لقيته سائراً بقرب غابة الارز ، حييته باحسن ما حضرني من الكلام فلم يرد التحية الا بهز رأسه ثم تحول عني مسرعاً · وفي المرة الثانية وجدته واقفاً في وسط كرمة صغيرة بقرب صومعة فدنوت منه قائلا « قد سمعت بالامس ان هذه الصومعة بناها ناسك سرياني في القرن الرابع عشر فهل لك علم بذلك يا سيدي ؟ »

فاجاب بلهجة خشنة « لا اعلم من بنى هذه الصومعة ولا اريد ان اعلم » ثم ادار لي ظهره وزاد ساخراً « لماذا لا تسال جدتك فهي اقدم عهدا واكثر علماً بتاريخ هذه الاودية » فتركته مكسوفا نادما عَلَى تطفلي

وهكذا مر عامان وحياة هذا الرجل المكتنفة بالاسرار تراود خيالي وتتمايل مع افكاري واحلامي ·

٢

ففي يوم من ايام الخريف وقد كنت متجولا بين تلك التلول والمنحدرات المجاورة لصومعة يوسف الفخري ، فاجأتني العاصفة باهوائها وامطارها وأخذت تتلاعب بي مثلما يتلاعب البحر الهائج بمركب كسرت الامواج دفته ومزقت الريح شراعه ، فتحولت نحو الصومعة قائلا في نفسي — هذه فرصة موافقة لزيارة هذا المتنسك وستكون العاصفة عذري وانوابي البلبلة شفيعي · بلغت الصومعة وانا في حالة يرثى لها ولم اطرق الباب حتى ظهر امامي

الرجل الذي طالما تشوقت الى لقائه حاملا بيده طائرا مهشم الراس منبوش الريش وهو يختلج كأنه عَلَى آخر رمق من الحياة · فقلت بعد ان حييته « اعذرني يا سيدي عَلَى مجيئي اليك في هذه الحالة ولكن العاصفة شديدة [illegible] بعيد عن المنازل »

فتفرَّس فيَّ عابساً واجاب بصوت يساوره الاستنكاف — « الكهوف كثيرة في هذه النواحي وقد كان بامكانك الالتجاء اليها »

قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم ارَ مثله في حياتي فعجبت لمرأى الضدين — الرأفة والخشونة — في وقت واحد وتحيرت في امري · وكأنه قد علم بما يخالج ضميري فنظر اليَّ نظرة استيضاح واستعلام ثم قال — « ان العاصفة لا تأكل اللحوم الحامضة فلمَ تخافها وتهرب منها ؟ »

فاجبته — « العاصفة لا تحب الحوامض ولا الموالح ولكنها تميل الى الرطب البارد ولا اشك بانها ستجدني لقمة لذيذة اذا قبضت عليَّ ثانية »

فقال وقد انفرجت ملامحه قليلاً — « لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت عَلَى شرف رفيع لا تستحقه »

فاجبته — « نعم يا سيدي ، ولقد جئت اليك هارباً من العاصفة لكي لا انال ذلك الشرف الذي لا استحقه ! »

فحوَّل وجهه محاولاً اخفاء ابتسامة ضئيلة ، ثم اشار نحو مقعد خشبي بقرب موقد تتأجج فيه النار وقال — « اجلس وجفف اثوابك »

فجلست بقرب النار شاكراً وجلس هو قبالتي عَلَى مقعد محفور في الصخر

وأخذ يغمس اطراف اصابعه بمزيج زيتي في طاسة فخارية ويدهن بها جانح الطائر ورأسه المجروح ، ثم التفت نحوي قائلاً — « قد دفعت الريح هذا الشحرور فهبط عَلَى الصخور بين حي وميت »

فقلت « والريح قد حملتني ايضاً الى بابك يا سيدي وانا للان لا ادري ما اذا كانت قد كسرت جانحي او هشمت رأسي »

فنظر الى وجهي بشيء من الاهتمام وقال —« حبذا لو كان للانسان بعض اطباع الطيور · حبذا لو كسرت العواصف اجنحة البشر وهشمت رؤوسهم · ولكن الانسان مطبوع عَلَى الخوف والجبانة فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى يختبىء في شقوق الارض ومغاورها »

فقلت وقصدي متابعة الحديث — « نعم ان للطير شرفاً ليس للانسان ، فالانسان يعيش في ظلال شرائع وتقاليد ابتدعها لنفسه اما الطيور فتحيى بحسب الناموس الكلي المطلق الذي يسير بالارض حول الشمس »

فلمعت عيناه وانبسطت ملامحه كأنه وجد بي تلميذاً سريع الفهم ثم قال —« احسنت ، احسنت، فاذا كنت تعتقد حقيقة بما تقول فاترك الناس وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة وعش كالطيور في مكان بعيد خالٍ الا من ناموس الارض والسماء »

فقلت —« اني اعتقد بما اقول يا سيدي »

فرفع يده وقال بصوت يمازجه التعنت والتصلب —« الاعتقاد شيء والعمل به شيء آخر · كثيرون هم الذين يتكلمون كالبحر اما حياتهم

فشبيهة بالمستنقعات · كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم فوق قمم الجبال اما نفوسهم فتبقى هاجعة في ظلمة الكهوف »

قال هذا ولم يدع لي فرصة للكلام بل قام من مكانه ومدّد الشحرور عَلَى جبة قديمة بقرب النافذة ثم تناول رزمة من القضبان اليابسة وألقاها في الموقد قائلاً —« اخلع حذاءك وجفف قدميك فالرطوبة اضر بالانسان من كل شيء آخر · جفف اثوابك جيداً ولا تكن خجولاً »

فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من اثوابي الرطبة · اما هو فوقف في باب الصومعة محدقاً بالفضاء الغضوب ·

وبعد هنيهة سألته قائلاً —« هل جئت الى هذه الصومعة منذ زمن بعيد ؟ »

فاجاب بدون ان يلتفت نحوي —« جئت الى هذه الصومعة عندما كانت الارض خربة وخالية وعَلَى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف عَلَى وجه المياه »

فسكت قائلاً في سري —« ما اغرب هذا الرجل وما اصعب السبيل الى حقيقته ، ولكن لا بدّ من محادثته ومعرفة خفايا روحه ، وسوف اصبر حتى يتحول شموخه الى اللين والدعة ·

٣

وغمر الليل تلك البطاح بردائه الاسود ونمت العاصفة وغزرت الامطار حتى خيل لي ان الطوفان قد جاء ثانية ليبيد الحياة ويطهر الارض من ادرانها وكأن ثورة العناصر قد ولدت في نفس يوسف الفخري تلك الطمأنينة

التي تجيء في بعض الاحايين مظهراً لرد الفعل فتحول نفوره مني الى الاستئناس بي ، فقام واشعل شمعتين ثم وضع امامي جرّة طافحة بالخمر وطبقاً عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل وبعض الاثمار المجففة ، ثم جلس قبالتي وقال بلطف — « هذا كل ما عندي من الزاد فتفضل يا أخي وشاركني به »

تناولنا العشاء صامتين صاغين الى ولولة الريح وبكاء الامطار ، غير انني كنت اتبصر وجهه بين اللقمة والاخرى ، مستفسراً ملامحه عن غوامضه ، سائلاً معانيه عن الميول والمقاصد المستحكمة بوجدانه ·

وبعد ان رفع المائدة تناول من جانب الموقد ابريقاً نحاسياً وصبَّ منه قهوة صافية زكية الرائحة في فنجانين ثم فتح علبة مفعمة بلفائف التبغ وقال بهدوء — « تفضل يا اخي »

فأخذت لفافة رافعاً بيدي فنجان القهوة وانا لا اصدق ما تراه عينيَّ فنظر اليَّ وكأنه قد سمعني مفكراً فابتسم هازاً رأسه ثم قال بعد ان اشعل لفافة وشرب قليلاً من القهوة — « انت بالطبع تستغرب وجود الخمر والتبغ والقهوة في هذه الصومعة · وقد تستغرب وجود الطعام والفراش ، وانا لا ألومك فانت واحد من الكثيرين الذين يتوهمون ان البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة وما في الحياة من الملذات الطبيعية والمسرات البسيطة »

فاجبته — « نعم يا سيدي فقد تعودنا الاعتقاد بان من يتنحى عن العالم ليعبد الله يترك وراءه كل ما في العالم من الملذات والمسرات ليعيش وحده متنسكاً متقشفاً مستكفياً بالماء والاعشاب »

فقال — « لقد كان بامكاني عبادة الله وانا بين خلقه لان العبادة لا تستلزم الوحدة والانفراد وانا لم اترك العالم لاجد الله لانني كنت اجده في بيت ابي وفي كل مكان آخر ، ولكنني هجرت الناس لان اخلاقي لا تنطبق على اخلاقهم واحلامي لا تتفق مع احلامهم ، تركت البشر لانني وجدت نفسي دولاباً يدور يمنةً بين دواليب تدور يساراً ، تركت المدنية لانني وجدتها شجرة مسنة فاسدة قوية هائلة عروقها في ظلمة الارض واغصانها تتعالى الى ما وراء الغيوم ، اما ازاهرها فمطامع وشرور وجرائم واما اثمارها فويل وشقاء وهموم · ولقد حاول بعض المصلحين تطعيمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا بل ماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين على أمرهم »

واتكأ اذ ذاك الى جانب الموقد وكأنه قد وجد لذةً في تأثير كلامه عليَّ فرفع صوته اكثر من ذي قبل وزاد قائلاً — « لا ، لم اطلب الوحدة للصلاة والتنسك ، لان الصلاة ، وهي اغنية القلب ، تبلغ آذان الله وان تصاعدت ممزوجة بصياح الوف الالوف ، واما التنسك ، وهو قهر الجسد واماتة رغائبه ، فمسألة لا مكان لها في ديني لان الله قد بنى الاجسام هياكل للارواح وعلينا ان نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية نظيفة لائقة بالالوهية التي تحل فيها · لا يا اخي لم اطلب الوحدة للصلاة والتقشف بل طلبتها هارباً من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وافكارهم وضجتهم وعويلهم طلبت الوحدة لكي لا ارى اوجه الرجال الذين يبيعون نفوسهم ليشتروا باثمانها ما كان دون نفوسهم قدراً وشرفاً · طلبت الانفراد لكي لا التقي

بالنساء اللواتي يسرن ممدودات الاعناق غامزات العيون وعلى ثغورهن الف ابتسامة وفي اعماق قلوبهن غرض واحد . طلبت الانفراد لكي لا اجالس ذوي « النصف معرفة » الذين يبصرون في المنام خيال العلم فيتخيلون انهم اصبحوا من المدارك بمقام النقطة من الدائرة ، ويرون في اليقظة احد اشباح الحقيقة فيتوهمون انهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق . طلبت الخلوة لانني مللت مجاملة الخشن الذي يظن اللطف ضرباً من الضعف ، والتساهل نوعاً من الجبانة ، والترفع شكلاً من الكبرياء . طلبت الخلوة لان نفسي تعبت من معاشرة المتمولين الذين يظنون ان الشموس والاقمار والكواكب لا تطلع الا من خزائنهم ولا تغيب الا في جيوبهم ، ومن الساسة الذين يتلاعبون باماني الامم وهم يذرون في عيونها الغبار الذهبي ويملأون آذانها برنين الالفاظ ، ومن الكهان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم ما لا يطلبونه من نفوسهم .. طلبت الوحدة والانفراد لانني لم احصل على شيء من يد بشري الا بعد ان دفعت ثمنه من قلبي . طلبت الوحدة والانفراد لانني سئمت ذلك البناء العظيم الهائل المدعو حضارة -- ذلك البناء الدقيق الصنع والهندسة القائم فوق رابية من الجماجم البشرية . طلبت الوحدة لان في الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد . طلبت البرية الخالية لان فيها نور الشمس ورائحة الازهار وانغام السواقي . طلبت الجبال لان فيها يقظة الربيع واشواق الصيف واغاني الخريف وعزم الشتاء . جئت الى هذه الصومعة المنفردة لانني اريد معرفة اسرار الارض والدنو من

عرش الله ».

وسكت متنفسا الصعداء كأنه القى حملا ثقيلا عن عاتقه وقد تلمعت عيناه باشعة غريبة سحرية وظهرت على وجهه امارات الانفة والارادة والقوة ومرت بضع دقائق وانا انظر اليه مسرورا بظهور ما كان محجوبا عني ثم خاطبته قائلا — انت مصيب في كل ما قلته ، ولكن ألا ترى ياسيدي ان بتشخيصك امراض الاجتماع واوصابه قد ابنت لي انك احد الاطباء الماهرين وانه لا يجدر بالطبيب الاعراض عن العليل قبل ان يشفى او يموت ؟ ان العالم بحاجة ماسة الى امثالك وليس من العدل ان تعتزل عن الناس وانت قادر على نفعهم

فحدق بي هنيهة ثم قال بلهجة ملوءها القنوط والمرارة « منذ البدء والاطباء يحاولون انقاذ العليل من علته . فمنهم من جاء بالمباضع ومنهم من جاء بالأدوية والمساحيق ، ولكنهم ماتوا جميعا بدون رجاء ولا أمل وياليت عليل الدهور يكتفي بملازمة مضجعه القذر وموأنسة قروحه المزمنة ولكنه يمد يده من بين اللحف ويقبض على عنق كل من يزوره ممرضا ويخنقه والامر الذي يغيظني ويحول الدم في عروقي الى نار محرقة هو ان ذلك العليل الخبيث يقتل الطبيب ثم يعود ويغمض عينيه قائلا لنفسه لقد كان بالحقيقة طبيبا عظيما » .. لا يا اخي . ليس بين الناس من يستطيع ان ينفع الناس فالحارث وان كان حكيما ماهرا لا يقدر على استنبات حقله في ايام الشتاء »

فاجبته قائلا — « قد يمر شتاء العالم يا سيدي ويجي بعده ربيع بهي جميل فتظهر الازهار في الحقول وتترنم الجداول في الاودية »

فقطب ما بين عينيه متنهدا وبصوت تعانقه الكآبة قال « ليت شعري هل قسم الله حياة الانسان — وهي الدهر بكامله — الى فصول تشابه فصول السنة بمسيرها وتتابعها ؟ هل يظهر عَلَى سطح الارض بعد الالف الف عام طائفة من البشر تحيى بالروح والحق ؟ هل يأتي زمن يتمجد فيه الانسان فيجلس عن يمين الحياة فرحا بنور النهار وطمأنينة الليل ؟ هل يتم ذلك ياترى — هل يتم ذلك بعد ان تشبع الارض من لحوم البشر وترتوي من دمائهم ؟ »

وانتصب اذ ذاك واقفا رافعا يمينه نحو العلاء كانه يشير الى عالم غير هذا العالم — « تلك احلام بعيدة ، وليست هذه الصومعة منزلا للاحلام ، لان ما اعلمه يقينا يشغل كل فسحة وكل قرنة فيها ، بل يشغل كل مكان في هذه الاودية وهذه الجبال . أما ما اعلمه يقينا فهو هذا — انا كائن موجود ، وفي اعماق وجودي جوع وعطش ، ولي الحق ان اتناول خبز الحياة وخمرها من الآنية التي اصنعها بيدي ، من اجل ذلك تركت موائد الناس وولائمهم وجئت هذا المكان وسابقى فيه حتى النهاية »

واخذ يمشي ذهابا وايابا في وسط تلك الغرفة وانا اتامله وافكر بكلامه وبالعوامل والبواعث التي صورت له الجامعة البشرية مخطوط عوجاء والوان قاتمة ، ثم استوقفته قائلا — « اني احترم افكارك ومقاصدك يا سيدي ، واحترم وحدتك وانفرادك غير انني اعلم — والعلم مجلبه الاسف — ان هذه

الأمة التعسة قد فقدت بتنحيك وابتعادك رجلا موهوبا قادرا عَلَى خدمتها وايقاظها »

فاجاب — هازا رأسه — « ليست هذه الأمة الا كالامم كافة ، فالناس من جبلة واحدة وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض الا في الظواهر والمظاهر الخارجية التي لا يعتد بها ، فتعاسة الامم الشرقية هي تعاسة الارض بكاملها . وليس ما تحسبه رقيا في الغرب سوى شبح آخر من اشباح الغرور الفارغ ، فالرياء يظل رياء وان قلم اظافره ، والغش يبقى غشا وان لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقا اذا لبس الحرير سكن القصور ، والخداع لا يتحول الى امانة اذا ركب القطار او اعتلى المنطاد ، والطمع لا ينقلب قناعة اذا قاس المسافات او وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وان سارت بين المعامل والمعاهد .. أما العبودية — العبودية للحياة ، العبودية للماضي العبودية للتعاليم والعوائد والأزياء ، العبودية للاموات فستبقى عبودية وان طلت وجهها وغيرت ملابسها . العبودية تظل عبودية حتى وان دعت نفسها حريه . لا يا اخي ليس الغربي ارقى من الشرقي ولا الشرقي احط من الغربي وما الفرق بينهما الا كالفرق الكائن بين الذئب والضبع . ولقد نظرت فرأيت وراء مظاهر الاجتماع المتباينة ناموسا اوليا عادلا يفرق التعاسة والعماوة والجهالة عَلَى السواء فلا يميز شعبا عَلَى شعب ولا يظلم طائفة دون طائفة »

فقلت وقد بلغ بي الاستغراب حد الالتباس — « اذا فالمدنية باطلة وكل

ما فيها باطل ؟»

فاجاب متهيجا — « نعم باطلة هي المدنية وباطل كل شيء فيها ، فما الاختراعات والاكتشافات سوى الاعيب يتسلى بها العقل وهو في حالة الملل والتضجر ، وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والاودية والتغلب عَلَى البحار والفضاء غير اثمار غشاشة مملوءة بالدخان لا ترضي العين ولا تغذي القلب ولا ترفع النفس اما تلك الالغاز والاحاجي التي يدعونها بالمعارف والفنون فهي قيود وسلاسل ذهبية يجرها الانسان مبتهجا بلمعانها ورنين حلقاتها ، بل هي اقفاص ابتدأ الانسان بتطريق اعمدتها واسلاكها منذ القدم غير عالم بانه لا ينتهي من صنعها الا ويجد نفسه اسيرا مسجونا في داخلها ... نعم باطلة هي اعمال الانسان ،وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والاماني وباطل كل شيء عَلَى الارض ، وليس بين اباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها — ليس هناك غير شيء واحد »

فقلت « وما ذلك يا سيدي ؟ »

فوقف دقيقة ساكتا ثم اغمض اجفانه واضعا يديه عَلَى صدره ، وقد اشرق وجهه وانبسطت ملامحه ، وبصوت عذب مرتعش قال — « هي يقظة في النفس · هي يقظة في عمق اعماق النفس · هي فكرة تفاجيء وجدان الانسان عَلَى حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة مكتنفة بالانغام ، محاطة بالهالات ، منتصبة كبرج من النور بين الارض والانهاية · هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج فجأةً في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد

سابحة مرفرفة في الفضاء الوسيع · هي عاطفة تهبط عَلَى قلب الفرد فيقف مستغربا مستهجنا كل ما يخالفها ، كارها كل شيء لا يجاريها ، متمردا عَلَى الذين لا يفهمون اسرارها · هي يد خفية قد ازالت الغشاء عن عيني وانا في وسط الاجتماع بين اهلي واصحابي ومواطني فوقفت منذهلا مدهوشا قائلا في نفسي — ما هـذه الوجوه وما شأن هولاء الناظرين اليَّ وكيف عرفتهم ، واين لقيتهم ، ولماذا اقيم بينهم بل لماذا اجالسهم واحادثهم ؟ هل انا غريب بينهم ام هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي واسلمتني مفاتيحها ... »

وسكت فجأة كأن الذكرى قد رسمت عَلَى حافظته صورا واشباحا لا يريد اظهارها ، ثم بسط ذراعيه وقال همسا — « هذا ما حل بي منذ اربع سنوات فتركت العالم وجئت هذه البرية الخالية لا عيش في اليقظة متمتعا بالفكر والعاطفة والسكينة »

ومشى اذ ذاك نحو باب الصومعة ناظرا الى اعماق الليل ثم هتف كأنه يخاطب العاصفة — « هي يقظة في اعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع اظهارها بالكلام ومن لم يعرفها لا ولن يدرك اسرارها »

٤

ومرَّت ساعة طويلة منطقة بهمس الفكر ونداء العاصفة ويوسف الفخري يمشي تارةً في وسط تلك الحجرة ويقف طوراً في بابها محدقاً بالفضاء العابس ، اما انا فبقيت صامتاً شاعراً بتموجات روحه ، مستظهراً اقواله ، مفكراً بحياته وما وراء حياته من لذة الوحدة وآلامها · وعند انقضاء

الهزيع الثاني من الليل اقترب مني ونظر طويلاً الى وجهي كأنه يريد ان يحفظ في ذاكرته رسم الرجل الذي باح له بسر وحدته وانفراده · ثم قال ببطء — « انا ذاهب الان للتجول في العاصفة ، هي عادة اتمتع بلذتها في الخريف وفي الشتاء ··· هاك ابريق القهوة واللفائف ، وان طلبت نفسك الخمر تجدها في الجرة · واذا شئت النوم تجد اللحف والمسأند في تلك القرنة »

قال هذا والتف بجبة سوداء كثيفة ثم زاد مبتسماً — « ارجوك ان توصد باب الصومعة عندما تذهب في الصباح لانني ساصرف الغد في غابة الارز »

ثم سار نحو الباب وتناول من جانبه عكازاً طويلاً وقال — « اذا فاجأتك العاصفة ثانية وانت في هذه النواحي فلا تتأخر عن الالتجاء الى هذه الصومعة · ولكنني ارجو ان تعلم نفسك حب العواصف لا الخوف منها ···· مساء الخير يا أخي »

وخرج الى الليل مسرعاً

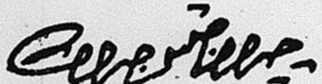
ولما وقفت في باب الصومعة لارى وجهته كان الظلام قد اخفاه ولكنني بقيت بضع دقائق اسمع وقع قدميه على حصباء الوادي

٥

جاء الصباح وقد مرت العاصفة وانقشعت الغيوم وظهرت تلك الصخور والغابات متشحة بنور الشمس فتركت الصومعة بعد ان قفلت بابها وفي نفسي شيء من تلك اليقظة المعنوية التي تكلم عنها يوسف الفخري ولكنني لم ابلغ منازل الناس وأرى حركاتهم واسمع اصواتهم حتى

وقفت قائلاً في سري — « نعم ، ان اليقظة الروحية هي اخلق شيء بالانسان بل هي الغرض من الوجود ، ولكن أليست المدنية بما فيها من التلبس والاشكال من دواعي اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع انكار امر موجود ونفس وجوده دليل على اثبات صلاحيته · قد تكون المدنية الحاضرة عرضاً زائلاً ولكن الناموس الابدي قد جعل الاعراض سلماً تنتهي درجاته بالجوهر المطلق »

ولم اجتمع ثانية بيوسف الفخري لان الحياة ابعدتني عن شمال لبنان في اواخر ذلك الخريف فجئت منفيا الى بلاد قصية عواصفها داجنة اما التنسك فيها فضرب من الجنون ·





هتف نوتيٌّ في الزمان القديم مخاطبا نبتون اله البحر اثناء عاصفة هائلة — « الهي ، انك قادر ان تنقذني أو تهلكني اذا شئت ، ولكني على كل حال سأدير دفتي باحتراس وصدق · »

مونتين

عصفت الريح وهبت نحو الجنوب فاثار هبوبها غناءً وهمساً وصراخاً في المخرج الآبد · وصدر منها صوت قائل — « اتبعني ! اتبعني تفز · »

« تنيسون »



المعتمد بن عباد ملك اشبيلية

نبذة تاريخية

« ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا
يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »
القرآن الشريف

٢

بين كان ابطال النصرانية يمزقون المملكة الاسلامية في الشرق بحملاتهم الصليبية كان ملوك الاندلس العرب يمزقونها في الغرب بخلافهم وانقسامهم وضعفهم · اذ كانوا يناوءون بعضهم بعضاً ويطمع كلٌ في ملك الآخر · فأطمع ذلك فيهم الفونسو السادس سيد ليون وكاستيل وكاليسيا او كما يسميه موءرخو العرب الاذفونش كره كند · فاغتنم فرصة انقسامهم وشدد عليهم النكير فاضطروا الى تقديم الجزية له صاغرين وفي اولهم المعتمد · وهم لو اتحدوا لهان عليهم الفتك به · ولكنهم فضلوا تقديم الجزية والاشتغال بنكاية بعضهم بعضاً عن صون البلاد من الاعداء ·

وحدث عقيب قتل ابن عمار ان وحشة وقعت بين المعتمد والفونسو

سببها ان الملك الاسباني ارسل سفيراً يهودياً يدعى ابن شاليب لقبض الجزية من المعتمد يصحبه قوم من روءساء الاسبان · فنزلوا بباب من ابواب اشبيلية ووجه اليهم المعتمدُ المال مع جماعة من وجوه دولته · فاستقله السفير وقال

— « والله لا أخذت هذا العيار الا مشجراً · وبعد هذا العام لا آخذ الا اجفان البلاد · ردوه اليه » (١)

فردوا المال الى المعتمد واعلموه بالقصة فاستشاط غيظاً وامر بصلب اليهودي وسجن رفاقه ·

ويقال ان سبب الوحشة غير ذلك · وهو ان امرأة الفونسو حملت ودنا ميعاد وضعها · فنصح له القسوس ان يبعثها لتلد في اشبيلية في الكنيسة التي حوّلها العرب الى مسجد ليكون مولدها مباركاً · فارسل الفونسو سفيراً يهودياً يخابر المعتمد بذلك · فلم يسمح له المعتمد بما اراد · فراجعه اليهودي واغلظ له في القول وواجهه بما لم يتحمله المعتمد فاخذ محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فانزل دماغه في حلقه · فلما بلغ الخبر الى الفونسو اقسم بالثالوث الاقدس وبجميع القديسين ان يأتي من الجنود بعدد شعر رأسه حتى يصل الى بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) وينتقم من العرب شر انتقام

ثم حشد جيشه وشن الغارة على العرب فحاصر طليطلة (توليدو) وملكها يومئذٍ القادر بن ذي النون فاجهده حتى تسلمها منه صلحاً · ثم نازل سرقسطه

---

(١) المقري

(بيراكوسا) وضيّق عَلَى ملكها ابن هود (١) فاستغاث هذا برصفائه ملوك العرب في الاندلس · ورأى المعتمد بن عباد ان دوره سيأتي قريباً فخابر ملوك الطوائف فلم يأنس منهم الا ضعفاً · وأوجس ان يذهب الملك من يد العرب · فعزم عَلَى ان يستجير بامير مراكش يوسف بن تاشفين اللمتوني ملك المرابطين مُخضع افريقيا ويطلب منه نجدة لكبح جماح الفونسو وصون البلاد · واعلم اخوانه الملوك بما عوّل عليه فحذره بعضهم من عاقبة عمله وقالوا له — « الملك عقيم · والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد · »

فاجابهم بكلمته السائرة مثلاً

— « رعي الجمال في افريقيا ولا رعي الخنازير في قشتاله (كاستيل) »

وسيّر الى أمير مراكش وفداً يرأسه قاضي المسمين فشرحوا له ما آلت اليه البلاد وما يخشونه من تغلب الافرنج عليهم · فاجتاز البحر بجيش عظيم من البربر · فاستقبله المعتمد في الجزيرة الخضراء وبالغ في اكرامه · وزحف الاثنان بجيشيهما عَلَى الفونسو فالتقيا به في الزلاقة من نواحي بطليوس فحدثت موقعة هائلة ابلى بها المعتمد بلاءً حسناً فكان يحارب في مقدمة الجيش وجرح عدة جراح · وانكسر الاسبان كسرة عظيمة وانهزم الفونسو ولم ينجُ من جيشه الا القليل · وقال بعض المورخين ان عدد جيش الاسبان في هذه الموقعة كان ثلاثمائة الف (٢)

---

(١) ابن خلدون

(٢) المقري

ولما فرغت جيوش العرب والبربر من غزوة الزلاقة وأمن عرب الاندلس شر الفونسو دعا المعتمد الامير ابن تاشفين الى بلاده وتكرم له وسأله ان ينزل عنده · فعرج ملك المرابطين واجابه الى ما طلب · فلما انتهى الى اشبيلية — وهي من احسن المدن واجلّها منظراً — وامعن النظر فيها وفي قصورها ومبانيها الفخمة وجمالها اعجبته ورأى في بلاط ابن عباد حياة لم يألفها فاغراه اصحابه باتخاذ مثل حياة المعتمد وزينوا له ما هي عليه من النعمة والترف · وكان ابن تاشفين قطع صدر عمره بالصحراء في شظف العيش · فلما رأى حسن بلاد الاندلس وبهجتها وما بها من المباني والبساتين وسائر الاصناف التي لا توجد في بلاده — بلاد البربر والاجلاف وقعت من قلبه موقعاً حسناً وطمع في الاستيلاء عليها · ولكنه كتم ذلك خيفة تألب ملوك الطوائف عليه ورأى الاولى ان يتربص ويتحين الفرص ويفتك بهم واحداً واحداً

واتى اليه حينئذٍ فقهاء الاندلس فشكوا اليه ان الشعب يئن تحت وقر المكوس الكثيرة وطلبوا اليه ان يأمر برفع الظلامات فتقدم بذلك الى ملوك الطوائف فاجابوه بالامتثال · واظهر ابن تاشفين الوداد للمعتمد وبادله عهود الولاء بعد ان وجده اقوى رصفائه ورأى استمالته اليه اولى ليتمكن من سحق الباقين · ثم آب الى افريقيا بعد ان ترك قسماً من جيشه في الاندلس لغزو الاسبان · فعاد ملوك الطوائف الى ما كانوا عليه من الانقسام ورجعوا الى حالهم من ضرب المكوس الباهظة عَلَى الشعب · فسئمهم الشعب وملوا حكمهم عَلَى ما جرت به العادة من حب الجديد · وتمنوا الراحة منهم واكثروا شكواهم ·

فرأى ابن تاشفين ان الوقت قد حان للفتك بهم وشجعه عَلَى ذلك صوت الشعب · فسار اليهم بجيشه بعد ان أفتاه الفقهاء واهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من ايديهم · وصارت اليه بذلك فتاوى اهل الشرق الاعلام مثل الغزالي وابو بكر الطرطوشي (١) · فاقتحم المرابطون عامة الاندلس من ايدي ملوك الطوائف · ولم يميز ابن تاشفين المعتمد عنهم ولم يخلص له الود كما تعهد بل سيّر عليه جيشاً بقيادة احد عظماء دولته

وكان المعتمد وابن تاشفين عَلَى طرفي نقيض من حيث الاخلاق · فالمعتمد كان كريماً دمث الاخلاق رقيق الجانب اديباً ربي في مهد العز والنعمة · وابن تاشفين كان خلواً من كل هذا قضى عمره في شظف العيش وربي في الصحارى · ويروى انه لما انصرف عن الاندلس الى بلاده في افريقيا كتب اليه المعتمد رسالة يقول فيها

بنتم وبنا فما ابتلّت جوانحنا   شوقاً اليكم ولا جفّت مآقينا
حالت لفقدكم ايامنا فغدت   سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قُرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء

— أيطلب منا جواري سوداً وبيضاً ؟ فقال له القارىء — يا مولانا ، ما اراد الا ان ليله كان بقربكم نهاراً لان ليالي السرور بيض فغاد نهاره ببعده عنكم ليلاً لان ايام الحزن سود ·

فقال — والله جيّد · اكتب له في جوابه ان دموعنا تجري عليه ورؤوسنا

(١) ابن خلدون

توجعنا من بعده ·

هذا الخلاف في الاخلاق بين ملك اشبيلية وملك المرابطين مع مطامع أدّى الى عداء مكتوم كان يؤجج ناره خواص ابن تاشفين ومستشاروه اذ اخذوا يزينون له اشبيلية ويحسنون له اخذها ويوغرون صدره عَلَى المعتمد باشياء نقلوها عنه كذباً · فتغير عَلَى المعتمد وعزم عَلَى التخلص منه وامتلاك الاندلس كلها ·

حاصرت جيوش المرابطين اشبيلية زمناً وثبت المعتمد وابناؤه ودافعوا دفاع الابطال · ويروى عن اقدام المعتمد وشجاعته في هذا الحصار اشياء مدهشة ، ولا عجب فقد كان يدافع عن كيانه ودولته ويقاوم الخيانة والصداقة الكاذبة · وفي احدى الليالي نقب المرابطون السور فلم يشعر المعتمد الا والعسكر قد دخلت البلد فركب فرسه وحسامه في يده وليس عليه الا قميص · فوافق العسكر قد دخل من باب الفرج ووافى هنالك طبالاً فضربه بسيفه ضربة قسمه بها نصفين · ففرّ الاعداء امامه وتراجعوا وتراموا من السور ووقف هنالك حتى بُني الباب ورُمم السور · وفي ذلك يقول ابياته المشهورة

إن يسلب القوم العدا   ملكي وتسلمني الجموعُ
فالقلب بين ضلوعه   لم تسلم القلب الضلوع
قد رمتُ يومَ نزالهم   ان لا تحصنني الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميص   — عَلَى الحشى شيء دفوع
أجلي تأخر لم يكن   بهواي ذلي والخضوع

مـا سرتُ قط الى القتال   وكان من املي الرجوع
شيمُ الأولى انا منهم   والاصل تتبعه الفروع

ولكن هذا الانتصار الوقتي لم يغنِ فتيلاً . ولا شك ان خيانات كثيرة في بلاط المعتمد عجّلت انقضاء امره وسهلت السبيل للعدو . فلم يلبث البلد حتى دُخل من جميع جهاته وحوصر المعتمد في قصره وتخلف عنه اعوانه . فلما رأى ان لا سبيل الى النجاة من المقدَّر طلب الامان له ولمن معه فأُمن وجميع من معه واعدّت لهم مراكب لنقلهم الى افريقية .

وسيق الملك الاسير الى المنفى بعد ان قضى في ملكه ٢٣ عاماً . فخرج لوداعه جمهور من الشعب الذي افاق من سكرته وعرف انه لم يدافع عن ملكه حق الدفاع فودعوه باكين مولولين آسفين .

وفي ذلك يقول ابن اللبانة

تبكي السماء بمزنٍ رائحٍ غادِ   عَلَى البهاليل من ابنـاء عبّادِ
عَلَى الجبال التي هدت قواعدها   وكانت الارض منهم ذات أوتاد
عريسة دخلتهـا النائبات عَلَى   أساود لهمو فيهـا وآساد
وكعبة كانت الآمال تخدمها   فاليوم لا عاكف فيها ولا بادِ
يا ضيف اقفر بيت المكرمات فخذ   في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويا موءملَ واديهم ليسكنه   خفّ القطين وجف الزرع بالوادي
وانت يافارس الخيل التي جعلت   تختال في عدد منهم واعداد
ألقِ السلاح وخلّ المشرفي فقد   اصبحت في لهوات الضيغم العادي

لما دنا الوقت لم تخلف له عدة   وكل شيء لميقـات وميعاد
ان يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا   وقد خلت قبل حمص(١) ارض بغداد
حموا حريمهم حتى اذا غلبوا   سيقوا عَلَى نسق في حبل مقتاد
وانزلوا في متون الشهب واحتملوا   فريق دهم لتلك الخيل انداد
وعيثَ في كل طوق من دروعهم   فصيغ منهنّ اغـلال لاجيادِ
نسيتُ الا غداة النهر كونهم   في المنشآت كأموات بالحادِ
والناسِ قد ملأوا العبرين واعتبروا   من لوءلوء طافيات فوق ازبادِ
حط القناع فلم تستر مخدرة   ومزقت اوجه تمزيق أبرادِ
حان الوداع فضجت كلّ صارخة   وصارح من مفداةٍ ومن فادِ
سارت سفائنهم والنوح يصحبها   كأنها ابلٌ يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت   تلك القطائع من قطعات اكبادِ

. . . . . .

فقد المعتمد في هذه الحرب عدا ملكه ابناءه الثلاثة وتراكمت عليه صنوف المصائب من كل الجهات . ولكنه ظل رابط الجأش يتلقى سهام الارزاء بقلب كبير . وضيّق عليه امير المرابطين خشية فراره ورجوعه الى ملكه فامر بسجنه في مدينة اغمات فاعتقل وكبل بالقيود . ولم يكن له من تعزية في نكبته سوى زوجته الرميكية التي لم يغير حبها الزمن وتقلب الحال . وفي

(١) كان عرب الاندلس يسمون اشبيلية حمص لما بين المدينتين من المشابهة في الجمال .

امره وامرها في الاسر يقول المعتمد ·

قالت لقد هُنَّا هنا   مولاي أين جاهنا
قلتُ لهـا -- الهنا   اوصلنـا الى هنـا

ولم يغير الاسر والذل شيئاً من اخلاق المعتمد الكريمة فظلَّ جواداً حتى في فقره واسره · ويروى عن كرمه أشياء لطيفة منها انه لما نُقل من اشبيلية الى سجنه باغمات مرَّ بطنجه فلقيه الحصري الشاعر وكان قد ألفَ له كتاب « المستحسن من الاشعار » ولم يقض بوصوله اليه الا وهو عَلَى تلك الحالة · فلما اخذ المعتمد الكتاب قال للحصري

-- ارفع ذلك البساط فخذ ما تحته · فوالله ما املك غيره

فوجد تحته جملة مال (١) · ومنها ما جرى بينه وبين شاعره ابن اللبانة · فقد كان هذا يأتيه وهو مسجون فيمدحه لا لجدوى ينالها بل رعاية لحقه واحسانه القديم (٢) · فظلَّ المعتمد يتحين الفرص حتى حصل لديه عشرون مثقالاً مرابطية · فارسلها مع ابنه الى الشاعر وأرفقها بثوبين غير مخيطين · وكتب معها هذه الابيات

اليك النزر من كفِ الاسير   وان تقنع تكن عين الشكور
تقبّل مـا يذوب له حياءً   وان عذرته حالات الفقير

. . . . .

(١) المقري
(٢) ابن الاثير

بقي الملك السجين يتعذب في سجنه اربع سنوات · وفي اواخرها مرضت الرميكية هماً وغماً وماتت تاركة زوجها العزيز وحده · ولكنه لم يستطع ان يتحمل وحده كل مصائبه فتبعها بعد زمن قصير وعاد الدهر فجمعهما في مقبرة واحدة باغمات سنة ٤٨٨ هـ (١١٠٠ مسيحية)

ومن لا يعجب ويعتبر حين يدري ان ملك اشبيلية الطائر الصيت مات زري القدر مجهولاً · فقد نودي في جنازته بالصلاة عَلَى الغريب بعد عظم سلطانه وسعة اوطانه وعظم امره وشأنه · نسيه الشعب ولكنَّ الشعراء لم ينسوه فتوافدوا عَلَى قبره فاجتمع عنده جماعة من الادباء الذين كان يتعهدهم باحسانه فبكوه ورثوه وتقدمهم شاعره ابو بكر بن عبد الصمد فانشد قصيدته التي يقول في مطلعها

ملك الملوك أسامعٌ فانادي   ام قد عدتك عن السماع عوادي

فلما انتهى منها قبل الثرى ومرغ جسمه وعفَّر خده فبكى كل من حضر وأكثر الشعراء من رثاء المعتمد وندب مجده قبل موتـه وبعده ولهم في ذلك قصائد طلية · عَلَى ان أفصح ما قيل في نكبته هو ما نظمه المعتمد نفسه في سجنه باغمات من الاسريات الرقيقة · ولا بأس من ايراد بعضها هنا · قال

غريب بارض المغربين أسيرُ   سيبكي عليه منبر وسريرُ
وتندبه البيض الصوارم والقنا   وينهل دمع بينهن غزيرُ
مضى زمن والملك مستأنس به   واصبح منه اليوم وهو نفور

(١) ابن الاثير

برأي من الدهر المضلل فاسدِ   متى صلحت للصالحين دهور
أذلّ بني ماء السماء زمانهم   وذلُّ بني ماء السماء كبير
فيا ليت شعري هل ابيتنّ ليلة   أمامي وخلفي روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا   يغني حمامٌ او تدنُّ طيورُ
بزاهرها السامي الذي جاده الحيا   تشير الثريّا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده   غيورين والصب المحب غيور
تراه عسيراً أو يسيراً مناله   الا كل ما شاء الاله يسير

. . . . .

تبدلتُ من عزِ ظل البنود   بذلِ الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً   وعضباً رقيقاً صقيل الحدود
فقد صار ذاك وذا أدهما   يعضُ بساقيَّ عض الأسود

. . . . .

قُبح الدهر فماذا صنعا   كلما أعطى نفيساً نزعا
قد هوى ظلماً بمن عاداته   ان ينادي كل من يهوى لعا
من اذا قيل الخنا صُمّ وان   نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع في نائله   قد ازال البين ذاك الطمعا
راح لا يملك الا دعوةً —   جبر الله العفاة الضُيعا

. . . . .

غنتك أغماتية الالحان   ثقلت علَى الارواح والابدان

قد كان كالثعبان رمحك في الوغى   فغدا عليك القيد كالثعبان
متعدداً يحميك كل تعدد   متعطفاً لا رحمة للعاني
قلبي الى الرحمان يشكو بثّه   ما خاب من يشكو الى الرحمان
يا سائلاً عن شأنه ومكانه   ما كان أغنى شأنه عن شاني
هاتيك قينته وذلك قصره   من بعد أي مقاصر وقيان

. . . . .

بكت ان رأت إلفين ضمهما وكرُ   مساء وقد أخنى علَى إلفها الدهرُ
وناحت فباحت واستراحت بسرّها   وما نطقت حرفاً يبوح به سرُ
فمالي لا أبكي ام القلب صخرة؟   وكم صخرة في الارض يجري بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقده   وابكي لالاف عديدهم كثر
بنيٌّ صغيرٌ أو خليل موافق   يمزق ذا قفرٌ ويغرقُ ذا بحرُ
ونجمان زينٌ للزمان احتواهما   بقرطبة النكداء أو رندة القبر (١)
عذرت اذاً ان ضنّ جفني بقطرةٍ   وان لوءمت نفسي فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي   لمثلهما فلتحزن الانجم الزهر

. . . . .

بكيتُ الى سرب القطا اذ مررن بي   سوارح لا سجنٌ يعوق ولا كبلُ
ولم تكُ، والله المعيذ، حسادة   ولكن حنيناً ان شكلي لها شكلُ
فأسرح لا شملي صديع ولا الحشا   وجيع ولا عينان يبكيهما ثكلُ

(١) يعني ابنيه المأمون والراضي. قتل الاول بقرطبة والثاني بحصن رندة

وما ذاك مما يعتريه وانما　　　وصفت الذي في جبلة الخلق من قبلُ
هنيئاً لها ان لم يفرق جميعها　　　ولا ذاق منها البعد عن اهله اهل
وان لم تبت مثلي تطير قلوبها　　　اذا اهتز باب السجن او صلصل القفل
لنفسي الى لقيا الحمام تشوّف　　　سواي يحب العيش في ساقه كبل
الا عصم الله القطا في فراخها　　　فان فراخي خانها الماء والظل

. . . . .

فيما مضى كنتَ بالاعياد مسروراً　　　فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة　　　يغزلنَ للناس ما يملكنَ قطميرا
برزنَ نحوك للتسليم خاشعةً　　　أبصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأنَ في الطين والاقدام حافية　　　كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خد الا تشكى الجدب ظاهره　　　وليس الا مع الانفاس ممطورا
أفطرتَ في العيد لا عادت اساءته　　　فكان فطرك للاكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً　　　فردّك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسرُّ به　　　فانما بات بالاحلام مسرورا

. . . . .

انباء اسرك قد طبقن آفاقا　　　بل قد عممن جهات الارض اقلاقا
سارت من الغرب لا تطوى لها قدم　　　حتى اتت شرقها تنعاك اشراقا
فاحرق الفجع اكباداً وافئدة　　　واغرق الدمع آماقا واحداقا
قد ضاق صدر المعالي اذ نعيت لها　　　وقيل ان عليك القيد قد ضاقا

أنى غلبتَ وكنت الدهر ذا غلبٍ　　　للغالبين وللسبّاق سباقا
قلت الخطوب أذلتني طوارقها　　　وكان عزمي للاعداء طرّاقا
متى رأيت صروف الدهر تاركة　　　اذا انبرت لذوي الاخطار أرماقا

. . . . .

كذا يهلك السيف في جفنه　　　اذا هزّ كف طويل الحنينِ
كذا يعطش الرمح لم اعتقله　　　ولم تروه من نجيعٍ يميني
كذا يُمنع الطرف علك الشكيم　　　— مرتقباً غرةً في كمينِ
كأن الفوارس فيه ليوثٌ　　　تراعي فرائسها في عرينِ
ألا شرفٌ يرحم المشرفي　　　— مما به من سمات الوتينِ
الا كرمٌ ينعش السمهريَّ　　　ويشفيه من كل داءٍ دفينِ
ألا حنة لابن محنيةٍ　　　شديد الحنين ضعيف الانين
يؤمل من صدرها ضمةً　　　تبوءه صدر كفءٍ معين

. . . . .

اقنع بحظك في دنياك ما كانا　　　وعز نفسك ان فارقت اوطانا
في الله من كل مفقود مضى عوضٌ　　　فاشعر القلب سلوانا وايمانا
أكلما سنحت ذكرى طربت لها　　　مجت دموعك في الخدين طوفانا
أما سمعت بسلطان شبيهك قد　　　بزته سود خطوب الدهر سلطانا
وطب علَى الكره وارقب اثره فرجاً　　　واستغفر الله تغنم منه غفرانا

إلا ان الفرج الذي ترقيه لم يكن سوى الموت الذي انقذه من عذابه

فمات المعتمد ذليلاً غريباً ودفن دفن الفقراء في قبر حقير . على ان ذلك لم يمنع من انتشار ذكر سجين اغمات بعد موته ، ولم يحل دون تحدث القوم بمجده ، ولم يمنع الشعراء والاعيان من زيارة قبره حتى بعد عقود من السنين . فقد زاره كثيرون منهم وزير الاندلس الاديب ابن الخطيب فوجده بمقبرة اغمات « في نشز من الارض وقد حفت به سدرة والى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك فلا تملك العين دمعها عند روءيتها » . وزاره المقري صاحب التاريخ المشهور فعمي عليه موضعه . فهداه اليه شيخ طاعن في السن وقال له « هذا قبر ملك من ملوك الاندلس وقبر حظيته التي كان قلبه بحبها خفاقا » فحصلت له في ذلك المحل خشية واذكار وذهبت به الافكار كل مذهب .

. . . .

هذا موجز سيرة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية احد النجوم الزاهرة التي سطعت في سماء الاندلس . حاك القضاء حياته من خيطين ابيض واسود — سدى السعادة ولحمة الشقاء . فمات تعيساً . ولكنه مات قبل ان يرى افول نجم العرب في سماء الاندلس ولم يسمع فيهم قول الشاعر

رب ركب قد اناخوا عيسهم   في ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهر زماناً عنهم   ثم ابكاهم دماً حين نطق

الذخيرة

بقلم مخائيل نعيمه

* * * * *

بئست الساعة التي شككت فيها بقوة الخشبة !

بئسها لانها انتزعت مني سميرا يندر مثله بين السمار .

توطدت العلاقات الودية بيني وبين شاهين بطرس الجمزيني في آخر الاسبوع الاول لعودته من البرازيل وقد رغبت في التقرب اليه لعذوبة حديثه وطلاوة اقاصيصه . فلم يمض على تعارفنا شهران حتى اصبحت قادراً ان أقص عن البرازيل ما كان يدفع البعض الى الظن بأني ولدت وقضيت قسما طويلا من حياتي فيها . لكني كنت اضطر كلما دعاني احد من السامعين الى دعم قصتي ببرهان ان أحيل السائل الى صديقي شاهين . وصديقي شاهين كان يدحض كل شكوك السامعين ببرهان قاطع لا يحتمل الرد والتاويل « رأيت كذا وكذا بعيني » أو — «سمعت كذا وكذا باذني» .

فكان اذا اخبر عن الافاعي التي تزدرد الثيران — مثلا — يقص الحادثة عن نفسه وبلسان المتكلم

— « كنت مارا ذات يوم في حرج كثيف واذا بثور برّي واقف كالمسحور في منتصف الطريق التي كنت سائرا فيها · وبينا انا افكر في وسيلة للفرار منه سمعت نفخة كانها من منفخ حداد · واذا بالثور هوى الى الارض بلا حراك · وهنابرزت من وراء شجرة افعى كبيرة سوداء ، لو قلت لكم ان محيط دائرة جسمها تساوي استدارة سنديانة مار نقولا أو تزيد فصدقوني انا انزلت بندقيتي عن كتفي ووقفت مكاني اراقب حركاتها · اقتربت اولا من رأس الثور وشرعت تلحسه بلسانها ثم انتقلت الى رقبته ثم الى ظهره وهلم جرا حتى لحست كل جسمه واتت عَلَى أخر ذنبه ولما انتهت من لحسه اخذت تبتلعه بادئة من الذنب · فتركتها ولم يبق من الثور خارج بطنها سوى قرنيه»

وقد لاحظت في مدة تقربي من شاهين انه يشمئز من كل من يبدي أقل شك في صحة رواياته واقاصيصه · لذلك كنت اتحاشى جهدي كل سوءال يشتم منه شك أو تكذيب · ومما ادهشني من أمره ان جراب اخباره كان بحرا بلا قاع حتى انه لم يقص علي القصة مرتين وكان كلما انهى قصته ورأى الدهشة بادية عَلَى وجهي يبادرني بقوله

— « هذه بسيطة · عندي أغرب منها بكثير · »

فهيج افكاري بترداد هذه العبارة الى ان جئته يوما قاصدا ان لا انصرف عنه حتى اسمع أغرب ما عنده من الأخبار · فجلسنا حسب عادتنا عَلَى

مصطبة امام بيته تظللها دالية من الكرم قد تدلت عناقيدها فوق رأسينا ، وجيوش النحل والزنابير تجول بين حباتها مهللة مدمدمة

ولم تمضِ بضع دقائق حتى وجدتني قد انتقلت من جليسي الى آجام البرازيل اراقب عجائب المخلوقات وارافق صديقي في رحلاته المحفوفة بالمخاطر حتى خيل لي أكثر من مرة ان الجالس بجانبي لم يكن هو بل شبحه وكان كلما اتى عَلَى آخر حكاية يرمقني بنظره من يعرف قيمة نفسه ويرتاح قلبه لعلامات الدهشة البادية عَلَى وجهي · اما انا فكنت عند نهاية كل قصة اردد عَلَى طرف لساني سوءالا اعددته قبل مجيئي · وهو — « هل هذه اغرب ما عندك · » وكأنه قرا ما كان بفكري فأنهى قصة طويلة لم أصغ لتفاصيلها كل الاصغاء وبادرني بقوله

— « هذه حادثة غريبة · انما عندي أغرب منها بكثير · فهل تحب ان تسمع اغرب ما عندي ؟»

وما كدت ان اجيبه — « هات واسمعنا » حتى رأيته قد أخذ يفك ازرار قميصه ثم مد يده الى تحت ابطه وأخرج من هنالك قطعة من الجلد الاسود مثلثة الزوايا معلقة بخيط اسود حول عنقه · فالقيت عليها نظرة ازدراء وأملت وجهي باسماً · لكن صاحبي لم يهتم لازدرائي وابتسامة الاستخفاف عَلَى وجهي بل أخذ بيدي ومدّ قطعة الجلد الى تحت انفي قائلاً

— « أتدري ما هذه ؟ لو عرفت قوتها كما اعرفها انا لما كنت تضحك · هذه « ذخيرة » من عود الصليب — الصليب الذي علق عليه المسيح · لا تضحك

فانا قد ضحكت قبلك ، لكني لا اضحك الان · انا — انت تعرفني — انا رجل عصري مثلك · قديسون وملائكة وشياطين وجنة وجهنم وآلهة وانبياء — « حط بالخرج » · انا عصري لا اعتقد بدين او ديانة · وكما تراني لست من بسيطي القلب · لكني اعتقد بهذه الخشبة ·

فاحترت في امري ولم ادرِ آآخذ كلامه مأخذ جد او هزل · لذلك سكت وكأنه عرف ما دار في خلدي فتابع كلامه —

— انا لا امزح · فهذه الخشبة هي ربي والهي الان وكل اوان والى دهر الداهرين ·

واذ رأيته في موقف جد حاولت ان اقنعه ببراهين تاريخية وعقلية ان من البهتان ان تكون تلك الخشبة من الصليب الذي سُمر عليه الناصري ، وانه اذا صح أن الصليب الذي وجدته هيلانة كان صليب المسيح الحقيقي فلا يعقل ان يسمح الذين ظفروا بتلك الجوهرة بعد هيلانة بتجزئتها الى كسر صغيرة كالتي معه ، واننا اذا سلمنا بتحطيم ذلك الصليب فلا نقدر ان نسلم بان رؤساء الديانة المسيحية في كل الاقطار قد تخلوا عن كسرة منه للعلمانيين، وان الذين يحملون امثال « ذخيرته » يُعدون بالالوف ، وانه قد مضى عَلَى وجود الصليب اكثر من الف وخمسمائة سنة فمن اين له ان يبين ان القطعة التي معه هي من الصليب الحقيقي -- الى ما هنالك من البراهين التي كنت أحسبها كافية لدحض رأيٍ كهذا · واخيراً سألته اذا كان يعتقد بقوة صليب المسيح فلماذا لا يعتقد بالمسيح نفسه · فاجابني ببرودة خاطر عرقلت لساني

وبلبلت افكاري ·

— قد قلت لك انني رجل عصري · وانت تعرفني · فكيفَ اعتقد بالمسيح وعجائبه وكلها تخالف العقل الصحيح عَلَى خط مستقيم ! اما هذه الخشبة فقد رأيت افعالها بعيني وجرَّبت قوتها بنفسي — فكيف اشكِ بها ؟ اما كونها من صليب المسيح فالرجل الذي ابتعتها منه نفى من عقلي كل الشك في امرها · هو يوناني الاصل · كان قبلاً كاهناً في القدس مقرباً من البطريرك · فاهدى اليه البطريرك هذه « الذخيرة » وليس مثلها في العالم كله سوى واحدة عند البطريرك المسكوني في اسطنبول واخرى في بطرسبرج وثالثة في كنيسة القيامة في القدس · وقد اراني حجة ناطقة تؤيد ذلك ولا تحتمل الشك · وعدا ذلك قد قلت لك اني شاهدت عجائبها بعيني · وقبل ان ادفع الى اليوناني عشرين ليرة ثمنها جربتها بالف طريقة · يا حيف عليك ! اتظنني من المغفلين ? اقول لك اني لم اشترها حتى علقها اليوناني في عنقه وأعطاني بندقية مزدوجة فحشوتها بيدي هذه — وضرب يده اليمنى باليسرى — ثم وقف عَلَى بعد خمس خطوات مني وقال — « اطلق عيارك » فاطلقت العيارين واليوناني لم يصب بأذى عَلَى الاطلاق · نعم · لم يخمش أقل خمش · حينئذٍ صدقت ما كان يقصه لي عن انه أصيب بعشر رصاصات في الحرب ولم يجرح وانه قضى مرة في البحر يومين لما تحطمت الباخرة التي كانت تقله فغرقت وغرق كل ركابها الا هو لان هذه « الذخيرة » كانت معلقة برقبته · اي · يا حيف عليك · ألا تعرف انني من الذين « نزعوا الدبس عن الطحينة » ؟ صاحبك

شاهين ليس من البسطاء يا صاحبي · قصدت ذات ليلة -- بعد ان علقت الذخيرة في عنقي -- صديقاً لي ساكناً في مزرعة بعيدة من المدينة · وكانت طريقي بين الاحراج · امتطيت صهوة فرسي واطلقت له العنان · وبينما انا في منتصف الطريق بين ادغال كثيفة قائمة الى الجانبين واذا بفرسي وقف وشخر ثم ارتجف كالقصبة التي تحركها الريح · نظرت الى امامي فاذا بنقطتين تبرقان في الظلمة فعرفت عَلَى الفور ان امامي نمراً يتحفز للوثوب عليَّ · وما هي الا لحظة حتى سمعت طلقاً من الرصاص ورأيت النمر قد ارتفع في الفضاء ثم انطرح بين الادغال ميتاً · ولم اكد اغبط نفسي عَلَى خلاصي منه حتى ادركت اني بين زمرة من العبيد اللصوص الذين بعد ان قتلوا النمر انهالوا عليَّ بوابل من الرصاص · فاعملت المهماز في خاصرة الجواد وشعرت قبل ان انجو بنفسي برصاصة اصابت فخذي واخرى رأسي وثالثة ظهري وكلها كانت ترجع عني كأنها اصابت صفيحة من الفولاذ · وقد وجدت في اليوم التالي رصاصتين في السرج وهما لا تزالان عندي -- هذا بسيط ! وقد حدث لي اغرب من ذلك عندما احترق البيت الذي كنت اسكنه فذهب هو وكل من فيه ضحية النار وبقيت انا وحدي سليماً · وهذا بسيط ايضاً -- وقد حدث لي اغرب منه بكثير مما يشيب الاطفال · وسأقص عليك بعضاً منه فيما بعد ·

لا ادري من اين اتتني الجسارة عَلَى ان اقول لصاحبي شاهين بعد ان اصغيت اكثر من ساعتين لاقاصيصه اني -- مع كل اعتباري اياه -- لا ازال اشك

بقوة خشبته · ولما شرعت اسأله هل فحص بنفسه الخرطوش الذي ناوله اياه اليوناني ليضعه في البندقية عندما جعل نفسه هدفاً للنار نظرت الى وجهه فاذا به قد جمد كقطعة من حديد وجحظت عيناه ثم صاح فجأة باعلى صوته منادياً ابنه الوحيد الذي لم يبلغ بعد الخامسة من عمره ·

-- الفريدو · الفريدو !

ولما لم يجبه الفريدو وثب قائماً وهرول نحو البيت وبعد هنيهة خرج وفي احدى يديه بندقية وبالاخرى يجر الفريدو الصغير الذي تبع اباه صاغراً وعَلَى يده قطة بيضاء حريرية الصوف يقبلها تارة ويداعب راسها بيده أخرى اما انا فبقيت جالساً كمن اصيب بمس لا ادري ما عسى ان يعني كل ذلك المشهد ، وشاهين لم يتنازل بعد ذلك ان يبادلني كلمة واحدة كانني حجر ملقى عَلَى المصطبة لا صاحب له · لكن منظر الصبي الصغير وقطته والحنو الذي كان يبديه نحوها مع بعض الدهشة البادية عَلَى وجهه من معاملة ابيه حولت افكاري عن شاهين قليلاً · فلم ادرك كنه قصده حتى رأيته قد اوقف الصبي عَلَى طرف المصطبة ثم نزع الذخيرة عن رقبته وعلقها برقبة ابنه آمراً اياه ألاَّ يتحرك من مكانه · ثم تراجع بضع خطوات الى طرف المصطبة الاخر والبندقية في يده · ثم رفعها الى كتفه فلم اصدق عينيَّ اذ رأيته قد صوَّبها نحو ابنه فوثبت كالمجنون غير آمل ان اصل الى يده قبل ان يتم المستحيل واصطكت رجلاي وانقطع نفسي وارتجفت يداي · لكني تمكنت من ان ادرأ الخطر وان اخلص الطفل من الموت · تمكنت من ان اميل يده

صاحبي قبل فوات الوقت فدوى الطلق في الفضآء وذعر الصبي وأجهش في البكاء . فهرولت الأم بقلب متقطع من داخل البيت ولم تصدق ان وحيدها لم يزل حيا حتى رفعته بيديها وضمته الى صدرها ونشفت دموعه بشفتيها ولما سكن روعها هجمت نحو زوجها وطفقت تصب عليه اللعنة بعد اللعنة والشتيمة اثر الشتيمة . ومن الغرابة انه لم ينبس ببنت شفة بل نزع الذخيرة بهدوء من عنق ابنه ثم صبر حتى عادت زوجته مع ابنها الى داخل البيت وعاد فالتقط القطة التي كانت قد افلتت من يد ابنه وعلق الذخيرة عَلَى عنقها ثم اخذها وربطها حيث كان قد اوقف ابنه منذ دقائق ، وتراجع الى الوراء دون ان يتكرم عليّ بكلمة كما فعل قبلا ورفع البندقية ثانية الى كتفه واطلق عياره قبل ان اتمكن من ان أشفع لديه بتلك القطة الجميلة المسكينة التي لم يبق منها في لحظة سوى امعاء ممزقة و كتل من الصوف مبعثرة وبركة دم صغيرة في المحل الذي كانت مربوطة فيه . ونظرت في تلك الدقيقة الى صديقي شاهين فاذا بلونه قد امتقع وبعينيه قد جمدتا ثم رايته قد رفع البندقية في يده وطرحها عنه الى بعيد بحنق كلي ووقف بعد ذلك هنيهة مكانه ثم مرّ من امامي يخطو خطوات مسرعة فلم أجسر أن اساله الى أين ، بل وجدت من الحكمة أن أعود الى بيتي ساكتاً

. . . . .

كنت بعد ذلك الحادث باسبوع ذاهبا ذات ليلة الى غابة الحور عَلَى شاطيء الساقية لأتخلص من وطأة الحر واسامر الضفادع بعد أن حرمني

صاحبي شاهين من لذة مسامرته فرأيت في ضوء القمر رجلاً جالساً عَلَى حافة بركة في الساقية يرمي فيها حجارة . ثم رأيته نزع عن عنقه قلادة وربط بها حجرا وطرح الحجر في البركة متمتما . واذ أحس بوقع قدمي نهض حالا فعرفت فيه صاحبي وسميري وشعرت بقوة تدفعني اليه لأرتمي عَلَى عنقه واطوقه بيدي والثم انامله واسأله الصفح عن كل ما سببته له من المساوى، واعبرّ له عن حاجتي القصوى اليه وشوقي الى تجديد العلاقات الودية بيننا. لكنه مرّ كطيف امامي دون ان يلتفت يمنة أو يسرة وقبل ان أجد في نفسي قوة لأحرك لساني غاب خياله عن عيني وابتلعت السكينة وقع خطاه البعيد عَلَى اوراق الحور اليابسة

ميخائيل نعيمه

لم يقل قط سكان لكدمون الاقدمون — كم عدد الاعداء المحاربين، بل كانوا يقولون — اين هم ؟ (بلوتارخ)

قال كسينوفانس — اعترف باني أجبن رجل عَلَى وجه البسيطة لاني لم أجسر ان فعل شرا قط (بلوتارخ)

أكليل العار

لامين الريحاني

★★★★★

تتمة (١)

ملخص ما نشر سابقاً

توفيق زيدون شاب سوري مستهتر متطوح في الموبقات. قضى قسماً من ليله يقامر حتى خسر آخر فلس. عاد الى منزله آيساً وهمّ بالانتحار تخلصاً من حياة عارٍ وفساد. ثم عدل عن ذلك وراح يزور خليلته لوسيل في بيتها وهي حسناء اميركية تشتغل في احد المكاتب احبت زيدون وتبذلت له وفضلته عَلَى سواه من الشبان. قضى بعض الوقت عندها تلك الليلة وسألها مالاً فلم تعطه. فغادرها بعد ان غافلها واختلس ما معها من المال. وتفقده في اليوم التالي فاذا به قد سرق منه اثناء عودته بالامس ليلاً. فهمّ بالانتحار ثانية واذا بلوسيل جاءت تطالبه بالمال وقد أحست بالسرقة فانكره عليها وطردها من بيته. وعاد يفكر في حياته الموبقة وحالته الشقية فاستحلى الانتحار وصوّب مسدسه الى رأسه فحال دون ذلك قرع التلفون. وكان المتكلم لوسيل تدعوه الى بيتها لتخبره بما يسرّه.

---

(١) نشر القسمان الاول والثاني من هذه القصة في الجزئين الرابع والسادس من سنة الفنون المنصرمة. وقد تأخرنا في نشر القسم الاخير منها لتغيب المؤلف في اوربا ردحاً من الزمن (المحرر)

تابع ما قبله

٣

عادت لوسيل الى شغلها في المكتب اصيل ذاك النهار رغم ما جرى في منزل توفيق زيدون. عادت الى شغلها رغم اضطراب ملك معقولها، رغم يأس كاد يذهب برشدها. عَلَى انها وقفت هنيهة في باب دائرة البوليس ولم تدخل. وقفت خائفة وذهبت حائرة. فدخلت المكتب كليمة الفؤاد، مشتتة البال، اسيرة الغم والهواجس. واذ جلست الى الآلة الكاتبة لتباشر عملها احست بصداع شديد اغشى بصرها فبدت صفوف الاحرف امامها كالازرار البيضاء وقد ذاب سواد ما نقش فيها، فلم تكد تميز الالف من الباء ولا الاعداد من احرف الهجاء.

كتبت سطرا فعضت شفتها غيظا ونزعت الورقة من الآلة ومزقتها. حاولت العمل ثانية واناملها ترتجف فمزقت الصفحة الثانية، ثم الثالثة والرابعة. فتوقفت عن العمل تصعد الزفرات. وشرعت تفرك يديها وجبينها علها تنتعش فتملك حواسها. ثم اخرجت من حقيبتها القلم الاحمر وعلبة السحوق والمرآة الصغيرة فدهنت شفتيها وطلت خديها وهي تحاول ان تزدري همها وتنسى ما حل بها.

وكانت رفيقتها تنظر اليها شذراً وتضحك في سرها هازئة ثم همست في اذن الكاتب كلمة فاجابها قائلاً — ولا ريب في ذلك لم تنم الليلة البارحة.

امُا الكاتب هذا فكان قد استطلع خبر لوسيل عملا باشارة المدير وتحقق امرها . فنهض حين رآها في هذه الحال ودخل عَلَى المديرَ يقول— يظهر إن هذه الفتاة مريضة او انها لم تنم الليلة البارحة وهي لا تستطيع قط عملا .

فأمره المدير ان يأتيه بحسابها ثم ناداها الى غرفته .

— لماذا لم تجيئي الى المكتب صباح هذا النهار ؟

— كنت مريضة ولم ازل احسن بصداع شديد اليم .

— الاحسن اذا ان تعودي الى بيتك . وقد تكونين في حاجة الى المال لتستشيري الطبيب . فهذا ما تبقى من اجرتك .

اخذت لوسيل المال وهي تشكر المدير الذي استأنف كلامه قائلا — ولم نعد في حاجة الى خدمتك .

هذا ما كانت تتوقعه . فلم تسأل المدير السبب في طردها . ولا همها امره . عَلَى انها تيقنت ان الكاتب قد وشى بها وفضح امرها . بعد ان تظاهر بحبها واكتسب ثقتها . فحدقت فيه وهي خارجة بنظرها المشتعل ولطمته بهذه الكلمات .

انت نذل . انت دون . انت كذاب خائن .

اجل فقد تحققت لوسيل السبب في طردها . وشعرت لاول مرة بحقيقة حالها وبسوء مصيرها. خرجت من المكتب وهي تكاد لا ترى ما حولها من شدة الغيظ واليأس والكمد. وذهبت تواً الى منزلها . فرمت بنفسها

عَلَى السرير واسترسلت الى البكاء . بكت كالطفل فبللت الوسادة دموعها

حياتان حياة خير وحياة شر لا تجتمعان في شخص واحد .

جلست توءنب نفسها وهي تردد هذه الكلمات . وشرعت تفكر في ما جرى في يوم واحد من حياتها المزدوجة . سرق مالها . أهينت . ضربت. فقدت وظيفتها. وصاحب البيت فوق ذلك يهم في طردها ان لم تدفع المتأخر من راتب ثلاثة اشهر .

وماذا لديها من المال؟ خمسة ريالات فقط خمسة ريالات لا تكفي اجرة النقل اذا اذن لها صاحب البيت ان تنقل فرشها. واذا نقلت الى بيت اخر فماذا عساها تفعل ؟ أتبحث عن وظيفة اخرى؟ المدير لم يعطها شهادة بحسن السلوك . ولم تزل تذكر كم قاست من العذاب اول مرة بحثت عن عمل في المدينة .

حياتان حياة صلاح وحياة إثم لا تأتلفان في نفس واحدة .

ستبتعد اذا من الخدمة — من المكاتب — من المدراء واستبدادهم . ثم ماذا ؟ أتستمر في مسيرها المشين المعيب — في طريق الإثم والعار ؟ أفي السوق وفي القهوة تطلب رزقها ؟ فكرت في ثمار ليلها ، في الحلو والمر في كأس اثمها . من اخلصت له الوداد يسرقها ويهينها ويضربها ويطردها من بيته . من وثقت به يخونها . ومن اشتروا جسدها يهينوها ويزدرونها . اجل فان الشبان الذين يطاردون البنات في الاسواق ويستغوونهم في القهاوي لكذاك الكاتب الخائن وذاك اللص توفيق زيدون . فماذا عساها تفعل ؟

حياتان حياة طهر وحياة عهر لاتجتمعان في امرأة واحدة ·

اتعود اذا الى بيتها · اتحتمي في ظل امها مستغفرة مسترحمة ؟ فهي تخشى امها ولا تستطيع ان تقيم واياها · ولما كانت في البيت كان اخوها هناك سلواها الوحيد · فلما سافر الى اميركا الجنوبية سئمت الاقامة فيه فخرجت غير آسفة توءم المدينة · ناهيك بان الاقامة في القرية لم تعد تروقها وقد ألفت العيش في المدينة ·

فلا العمل نهارا في المكتب اذا ، ولا السير ليلا في طرق الاثم والضلال والعار ، ولا الرجوع الى البيت اذن ؟ فكرت لوسيل مليا في امرها ووطنت النفس اخيرا ان تظل في المدينة · اجل ستشكو توفيق زيدون الى البوليس ستشكوه الى البوليس · ولكن الريب ملكها في كل شوءونها · التردد اقعدها الخوف قيد منها العزم والنشاط · فهي اذا شكت السوري تفضح امرها بيدها طال النزاع في صدرها فكاد يقتلها · وكل نزاع نفسي لا يجلو الروح والفكر يولد اليأس والقنوط · واليأس في مثل هذه الحال اشد من الايمان قوة واعظم من الموت هولا ·

اشهر اليأس سيفه في لوسيل فنهضت ملبية · أجل · ستقتص بيدها من السوري اللئيم · سينال من يدها جزاء فعلاته · خمسة ريالات ستحسن استخدامها · قد أغلقت ابواب الرزق والفرج في وجهها فستموت في الاقل شريفة النفس · ستموت بعد ان تذيق السوري جزاء اثمه ·

لبست قبعتها واسرعت الى مخزن تبتاع مسدسا بالمال الذي قبضته اجرتها ·

وعادت الى البيت فخاطبت زيدون بالتلفون تسأله ان يزورها تلك الليلة ولو علمت بقصده تلك الساعة لندمت عَلَى افسادها عمله · لو كان لها ان تراه والمسدس بيده لتركته وشأنه وشكرت ربها · ولكنها الاقدار تلعب بالناس لعب الاكر ·

دخلت لوسيل مطبخها الصغير لترى ما عندها من حواضر البيت للعشاء فوضعت ركوة الشاي عَلَى وجاق الغاز وبين هي تفتح علبة من الفاصوليا المطبوخة لتسخنها دق الجرس فراحت تفتح الباب فاذا هناك رجل حياها تحية الاحباب هاتفا — هالو لوسيل ·

وقفت لوسيل مدهوشة و كادت لا تصدق نظرها ·

— وليم · وليم !

ورمت بنفسها عليه تعانقه · فعانقها وقبلها تكرارا ·

ثم دخلت البيت وهي آخذة بيده فاجلسته عَلَى الديوان وجلست الى جانبه · فقبلها وليم ثانية وهو يردد اسمها ويربت خديها ·

وليم اخو لوسيل شاب لا يتجاوز الثلاثين سناً ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، عصبي المزاج ، حاد النظر ، روحاني العين ، خطواته تدل عَلَى ثقة له بنفسه ، وحديثه يدل عَلَى ايمان له بالناس ، وهو يحب لوسيل اخته الوحيدة حبا جميلا ولا يريدها بعيدة منه الا اذا كانت متزوجة وسعيدة في زواجها ·

وشد ما كانت دهشته لوسيل وشد ما كان ابتهاجها في مشاهدة اخيها بعد تغيب طويل الاجل ·

— وليم عزيزي · اي متى عدت ? وكيف علمت بي ? من اعطاك عنواني·

— عدت الاسبوع الماضي ومنذ وصولي وعلمي انك تركت البيت وانا ابحث عنك · الفتاة التي تهرب من بيتها يا عزيزتي لا تراسل احداً في قريتها · ولكن ابن القسيس جارنا هجر القرية ايضا · والقسيس ابوه عالم بمقرك وبما انت تصنعين ·

اضطربت لوسيل هنيهة عند استماعها « وبما انت تصنعين » فامتقع لون وجهها · ولكنها اطمأنت حين واصل اخوها حديثه قائلا — وهل انت راضية بوظيفتك وباجرتك ? يظهر من هذا البيت ومن فرش منزلك واثاثه انك في يسر واقبال · ولكن مهما كانت اجرتك خمسة وعشرين ريالا او خمسين في الاسبوع فاخوك وليم لا يرضى بها · ولا يريد ان تقيمي في هذه البلد بعيدة منه · جئت يا اختي الحبيبة لاعود واياك الى البيت · واعلمي اني نجحت نجاحا باهرا في سفري الى البرازيل · وقد وطنت النفس ان اوءسس عملا لنفسي · فاحب ان تكوني معي الى حين زواجك · انا عالم باشراك المدنية يا عزيزتي لوسيل وبموبقاتها · وقلما تسلم ابنة غريبة فيها ·

صعدت لوسيل الزفرات واغرورقت عيناها بالدموع ·

— ما بالك تبكين ? الا تعودين الى البيت ? أو لست ترغبين ببيت تكونين سيدته ?

— لا يا اخي وليم لا اعود الى البيت ·

— ولماذا ?

— لالف سبب ·

— سبب واحد يقنعني · وقولي لي لماذا تبكين ·

— هل تعشيت ياعزيزي ·

— لا

— اذا تشاركني العشاء الذي كنت احضره لنفسي عند وصولك وبعدئذ اقص عليك قصتي ·

وراحت لوسيل الى المطبخ تحضر عشاء لها ولاخيها · وبين كان وليم ينتظر في غرفة الاستقبال وهو يجيل الطرف في ما فيها من الاثاث والاعلاق استوقفت نظره صورة عَلَى ظهر البيانو فاذا هي صورته وهو صبي · والى جانبها بل وراء اطارها الفضي المسدس الذي ابتاعته منذ ساعة · فتحه وليم فاذا فيه ست رصاصات · ثم اعاده الى مكانه دون كثير اكتراث·

وبعد برهة جاءت لوسيل تدعوه الى غرفة الطعام

— فرش منزلي ينبىء باليسر · ولكن مائدتي يـا عزيزي وليم — فهي كما ترى ·

— اتجوعين نفسك لتكسي جسدك مثل سائر البنات ?

— ربما كان ذلك ·

— ولماذا لا نذهب الى احد المطاعم ? قومي · تعالي معي

— لا لا · افضل ان اكون واياك وحدنا ·

— لتقصي قصتك · حسن · فهاتيها اذن ·

احنت لوسيل رأسها وسكتت ثم رفعت منديلا الى عينيها ·

— ما بالك ؟ وما الداعي الى هذه الدموع؟ اخبريني يا عزيزتي لوسيل ولا تكتمي شيئا · فانك تعلمين مقدار حبي اياك · نعم · انا لك في كل حين · اذا كنت في شدة فقد جئت اساعدك · اذا كنت في محنة ·····

ونهض اذ ذاك يقبلها ويربت خديها ·

— اطلعيني عَلَى امرك · اكشفي لي سرك · ولا تخفي عني شيئاً · وكل ما استطيع عمله من اجلك فانا فاعل مسروراً · تكلمي ·

فنهضت اذ ذاك لوسيل فورا وراحت الى ردهة الاستقبال وعادت والمسدس بيدها فوضعته عَلَى الطاولة امام وليم ·

— هذه قصتي ·

— لوسيل !

— نعم هذه قصتي ·

— وما معنى ذلك · هل تنوين شرا بنفسك او باحد من الناس ؟ اذن قد جئت في الوقت المرغوب · مجيىء الان الهام الله ·

نعم · جئت اخلصك من نفسك · حيف عليك · حيف · مثلك يفكر بهذه الامور ؟ فاذا كانت هذه قصتك قومي بنا نذهب الى التياترو ·

— لا · لا · اني انتظر رجلا هذا المساء ·

— رجلا تنتظرين ؟ ومن هو ؟ مَن تنوين قتله يا ترى ؟

قال وليم قوله ضاحكا · اما لوسيل فظلت ساكتة

— كلميني يا عزيزتي · فقد حيرني امرك والله · هل لي ان اعرف من هو الرجل · وما عسى ان يكون شأنه ؟

اسمع يا عزيزي وليم اخبرك بما جرى ليلة امس واليوم · ولكني استحلفك الا تسألني ان اطلعك عَلَى سوابق حالي · وارجوك الا تؤنبني · ولا تغير ظنك بي · فانا اعلم مقدار حبك · ولكنك قد تجهل مقدار حبي · رسمك دائماً امامي · وذكراك اثناء تغيبك لم تذهب يوما من قلبي ليس لي سواك في هذا العالم ولا ········

فقاطعها وليم قائلا — لاحاجة لهذه الديباجة · اخبريني ماذا جرى ولا تكتمي شيئاً ·

اجابت لوسيل طلبته · فاعلمته بما حدث في عشرين ساعة مضت منذ مجيء توفيق زيدون ليل البارح حتى اصيل ذاك النهار · وكان وليم وهو يستمع حديثها جالسا في الكرسي جامد العين اصفر اللون كتمثال من الشمع لا يتحرك · ثم نهض من الكرسي فورا وطفق يتمشى في الغرفة منكس الرأس ويداه مضمومتان وراء ظهره · وظل كذلك بضع دقائق لا ينبس ببنت شفة ·

تقولين انه سرق مالك ، وضربك ، وهم بقتلك · وطردك من بيته ؟ لوسيل عزيزتي ، وعدتك الا استطلع ماضيك في هذه البلد · ووعدتك الا اؤنبك ارفعي رأسك لوسيل ولا تبكي · كلما اقوله يا حبيبتي هو هذا — ليس

الرجل وحده ملوم . ولكن غلطة الفتاة تغتفر قبل غلطة الشاب . وانت اختي الحبيبة . لاشيء يزعزع حبي اياك ولا شيء يغير حسن ظني بك . عَلَى اني اسألك امرا واحـدا ولا اقبل منك فيه رفضا . والا نسيتك انكرتك ، محوت من قلبي رسمك وذكرك اسألك لوسيل ان تعودي معي الى البيت حالا . قولي نعم .عديني .

ولكن قبل ان فاهت لوسيل بالجواب دق جرس الباب فذعرت وهتفت تقول — هذا هو .

— مكانك . انا اقابله .

فصاحت — لا لا وقد امسكته بيده .

— مكانك يا اختي وسكني روعك .

— ولكن اعطني المسدس . اعطنيه . وقابله اذا شئت .

— ليس هذا من شأنك . فقد انتهى امرك والرجل وابتدأ امري

— ارجوك ان تعطيني المسدس .

— ارجوك ان تجلسي وتسكتي .

وتفلت اذ ذاك من يديها وراح يفتح الباب فاذا برجل هناك فخاطبه بصوت هادیء قائلا — انت توفيق زيدون

— نعم

— انا اخو لوسيل . جئت اخبرك انها لا تستطيع ان تقابلك . وهي

تهديك هذا المسدس علك تكون في حاجة الى المال فتبيعه وتتصرف بثمنه. خذه . خذه .

لبث زيدون جامدا كالصنم . فلم يمد يده ولا حرك شفتيه فوضع وليم المسدس في جيبه ولطمه عَلَى خده بقفا يده .

— نذل . لص . جبان ! اذا لم تكن في حاجة الى المال فانت في حاجة الى المسدس . خذه . تصرف به كيف شئت .

وقفل وليم الباب وعاد الى لوسيل يقول — اذا كان لاخير البتة في هذا المخلوق فالمسدس ألزم له . واذا كان لم يزل في نفسه بذرة صلاح واحدة فالمسدس لا يضره . لننسه الان . انسيه يا عزيزتي لوسيل . انسيه . وتعالي الي . تعالي اقبلك .

رمت لوسيل بنفسها عَلَى صدر اخيها فطوقها بذراعيه يقبلها وتقبله

اما توفيق زيدون فعاد الى منزله يقول — وهذا اكليل العار . لا يتنازل اخوها ان يقتلني . لا يدنس بي يده . هذا اكليل العار يا توفيق . ولكني لا البسه ، لا والله . ولا اقتل نفسي قبل ان اصلحها . بلى بلى . ساقدمها وان كانت موسخة ضحية لبلادي .

وكتب تلك الليلة كتابا الى لوسيل وذهب في صباح اليوم التالي الى الدائرة العسكرية في حيه فتطوع في الجيش وقد انتحل اسما جديدا وسافر بعد بضعة اشهر في فرقته الى ساحة القتال — الى خطوط النار .



ليل العليل

*****

الله انشاك ِ ام ابليس انشاك ِ   يا ليلة الشك او يا ليلة الشاكي
أسرفت ِ في عنَتي يا بنت شرّ أبٍ   لا شك ان اباك ِ الدهر اوصاك ِ
حتى مَ ارقب فيك ِ الفجرَ منتظراً   كأنّ طرفي معقودٌ بشبّاكِ
تظل سرج الدراري فيك مُشعلة   هذي دراريك ام انوار نسّاك ِ
حاكت دموع عيوني في تلألئها   فكدت امسحها مع مدمعي الباكي
رحماك رحماك قد هيجت بي ألماً   كأنه فوضويٌ رام اهلاكي
أنبيت بي مضجعي لا الداء هادنني   ولا الكرى مدَّ حولي بعض اشراك
تشكو فقاري لاضلاعي تقرحها   من الفراش فتشكو ذي لاوراكي
مدفَّعٌ بين اعضائي ومضطهدٌ   كأنني عربيٌّ بين اتراك
والروح ترسف بالالام ظالعة   مشيَ الاسير المحفّى بين اشواك ِ
فان هي انطلقت ِ حيناً تطاردها   مصائبي بين اقمار وافلاك

. . . . .

كم في الجراثيم من غوّاصة ٍ لغمت   جسماً بداء ٍ ولم تعلق باشباك ِ
ومن كرياته الحمراء لاقفه   كما تلقّف حوتٌ بعض اسماك
ترمي الضعيف فتصمي غير منذرة   يا اخت غليوم في برلين منشاك ِ ؟

يا شر كل الافاعي في تسترها   لو كنت ظاهرة ما كنت اخشاك ِ
تسرين كاللص والابصار غافلة   تجرين في الدم باسم الشر مجراك ِ

. . . . .

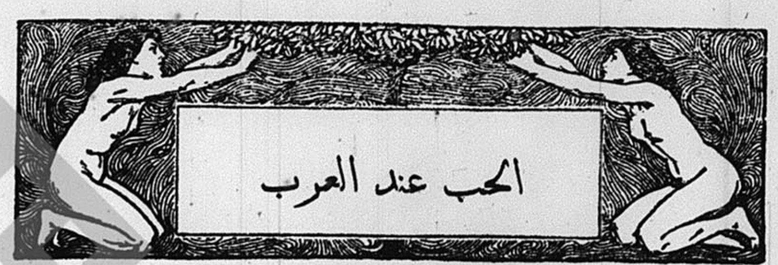
يا للرشيد التعيس الحظ في كبد   لم يلقَ فيها طبيباً غير أفّاك ِ
قالوا اصابك سهم البرد يا كبدي   كأنهم غفلوا عن جمرك الذاكي
تألمي وامرضي ما شئت ِ وابتئسي   ما انت ِ افضل عندي من احباك ِ
أم ِ لو ان يداها مسّتاك لما   عانيت ِ انت ولا عانى معنّاك ِ
واخوة ٍ لو تجلت شمس طلعتهم   تكشفت كسحاب الصيف بلواك
لهفي عليهم أداء الجوع يقرضهم   وربما انت داء النهم ِ ادواك ِ

.....

يا بنت لبنان لا تنسي اباك فما   كولومب الا غريبٌ قد تبنّاك ِ
جارت عليه العوادي والعداة ومن   اقلها كل نهّاش ٍ ونهّاك ِ
له عليك جميلٌ من مآثره   هذا الجمال المصفى في محيّاك ِ
فكلما ذكروا لبنان في سمر ٍ   غضي جفونك حزناً واطبقي فاك ِ

سان باولو   « رشيد سليم الخوري »





الحب عند العرب

(امثلة تدريجية مقتبسة من كتب شتى)

بقلم مالك

* * * * *

قبل المسيح

كان لقمان بن عاد حكيم العرب مغرماً بالنساء . ولكثرة تزوجه وطول عمره اصبح غيوراً شديد الاحتراس لئلا يخنه . فتزوج جارية صغيرة وجعلها في بيت نقره في جبل لا يصعد عليه الا بالسلاسل . فنظر اليها رجل من الحي فأحبها . فاتى قومه فأخبرهم وجده بها وسألهم الحيلة في امره . فامهلوه حتى اراد لقمان الغزو فعمدوا الى الرجل وشدوه في حزمة سيوف . واتوا الى لقمان فاستودعوها اياه فوضع السلاح في بيته . فلما مضى تحرك الرجل في السيوف فقامت اليه المرأة تنظر فاذا هي برجل فشكى اليها حبه واقام معها زمناً حتى قدم لقمان فردته في السيوف كما كان وجاء قومه فاحتملوه . ونظر لقمان يوماً الى نخامة في السقف فقال — من تنخم هذه . فقالت — انا . قال — فتنخمي مثلها . فقصرت . فقال يا ويلتاه والسيوف دهتني . فقتلها .

ثم نزل فلقي ابنته صاعدة . فأخذ حجراً فهشم رأسها وقال — انت ايضاً امرأة

« اخبار النساء »

في الجاهلية

خرج عبدالله بن جدعان الى شعب من نجد ينشد ضالة له . فشارف ماء يقال له نهر غسان — وكانت بنات العرب تقصده لتغتسل فيه . فلما علا ربوة تشرف ذلك النهر رآهن على تلك الحالة ، فمكث ينظر اليهن مستخفياً . فصدعن حتى بقيت هند بنت كعب ، وكانت طويلة الشعر ، فأخذت تمشط شعرها وتسبله على بدنها وهو يتأمل شفوف بياض جسمها من خلال سواد الشعر . ونهض ليركب راحلته فعجز وأقعد ساعة . وداخله من الحب ما اعجزه وعطل حركاته . وكان يقال عنه قبل ذلك ان العرب كانت تصف له ثلاث رواحل قائمة فيحلقها ويركب الرابعة . وما زال به الحب حتى اهلكه .

« تزيين الاسواق »

في بدء الاسلام

استخلف رجل من كندة أخاه على بيته وسافر لغرض له . فصادف يوماً ان دخل وزوجة اخيه سافرة فرآها ، فلما علمت بذلك سترت وجهها بيديها ، فكان ما لقيه من معصميها اضعاف ما لقيه من وجهها . فخرج وقد اشتعل الحب في قلبه . واقام يكابد العناء حتى لزم الوساد . وجاء اخوه فابصره وقد ذوت اعضاؤه وتغير جسمه فلم يترك عرافاً او طبيباً حتى دعا له فلم ينجح ،

حتى وصف له الحرث بن كلدة وكان احذق اهل زمانه · فلما رآه قال – ليس به الا العشق · فقالوا – وما السبيل الى معرفة ذلك ؟ قال – تسقونه الخمر فعساه ان يصرح · ففعلوا فصرّح باسم ريّا زوجة اخيه · فقال اخوه – اشهدكم انها طالق ثلاثاً ، لاني اعتاض عنها ولا اعتاض عن أخي · فبشروه بذلك فقال – هي عليّ كأمي ان تزوجتها · ومات بعد قليل

— سنة ٦٥٨ م —

كان لعلي ابن ابي طالب جارية تدخل وتخرج · وكان له موءذن شاب · فكان اذا نظر اليها قال لها – انا والله احبك · فلما طال ذلك عليها اتت علياً فاخبرته · فقال لها – اذا قال لك ذلك فقولي – وانا والله احبك فما العمل ؟ فاعاد عليها الفتى قوله فقالت له – واناوالله احبك فما العمل ؟ فقال – تصبرين ونصبر حتى يوفينا من يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب · فأعلمت بذلك علياً فدعا به وزوجه منها · « الموشى »

— سنة ٦٩٠ —

سعت امة لبثينة بها الى ابيها واخيها وقالت لهما ان جميلاً عندها الليلة · فاتياها مشتملين عَلَى سيفين فرأياه جالساً حجزة منها يحدثها ويشكو اليها بثه · ثم قال لها

– ايا بثينة ، ارأيت ودي اياك وشغفي بك ، ألا تجزينه ؟

قالت – بماذا ؟

قال – بما يكون بين المتحابين ·

قالت له – يا جميل ، أهذا تبغي ؟ والله لقد كنت عندي بعيداً عنه · ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهي ابداً · فضحك وقال – والله ما قلت لك هذا الا لاعلم ما عندك فيه · ولو علمت انك تجيبيني اليه لعلمت انك تجيبين غيري ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفي هذا

فقال ابوها لاخيها – قم بنا · فما ينبغي لنا بعد اليوم ان نمنع هذا الرجل عنها · « العقد الفريد »

— سنة ٧٠٠ —

مرّ المجنون بزوج ليلى وهو جالس يصطلي في يومٍ شاتٍ · فوقف عليه ثم انشأ يقول

بربك هل ضممت اليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل دارت يداك بمنكبيها وهل رفّت عليك ذوءابتاها

فقال زوجها – اللهم ، ان حلفتني فنعم ·

فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه وسقط الجمر مع لحم راحتيه · وعض عَلَى شفته فقطعها

« الاغاني »

— سنة ٧٠٥ —

هوي وضاح اليمن امرأة من كندة يقال لها روضة فلما اشتهر امره معها خطبها فلم يتزوجها وتزوجت غيره · فمكثت مدة طويلة ثم اتاه رجل من

بلدها فأسرَّ اليه شيئاً فبكى قال له اصحابه – مالك تبكي وما خبرك ؟ فقال – اخبرني هذا ان روضة قد جذمت وانه رآها قد القيت مع المجذومين

ثم ذهب وضاح في سفر مع اصحابه فبينا هو يسير اذ استوقفهم وعدل عنهم ساعة ثم عاد اليهم وهو يبكي فسألوه عن حاله فقال – عدلت الى روضة وقد اخرجت من بلدها ووضعت مع المجذومين فاصلحت من شأنها واعطيتها صدراً من نفقتي · وجعل يبكي لما بها

« الاغاني »

— سنة ٧١٠ —

« لقد كنت وانا شاب أعشق ولا أعشق · فاليوم صرت الى مداراة الحسان الى الممات · ولقد لقيتني فتاتان مرة في ايام غزلي فجعلت احداهما تسر اليَّ سراً ودنت الاخرى فجعلت تعضني فما شعرت بعض هذه من لذة سرار تلك »

عمر بن ابي ربيعة « الاغاني »

— سنة ٧٢٤ —

كلف الخليفة يزيد بن الوليد بجاريته حبابة كلفاً شديداً واشتغل بحبها حتى اضاع الرعية · فدخل عليه اخوه مسلمة وقال له – يا امير المؤمنين تركت الظهور للعامة ، والشهود للجمعة واحتجبت مع هذه الامة !

فارعوى قليلاً وظهر للناس · فغنته حبابة بهذه الابيات

ألا لا تلمه اليوم ان يتبلدا فقد منع المحزون ان يتجلدا
اذا انت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من أصلب الصخر جلمدا

هل العيش الا ما تلذ وتشتهي وان لام فيه ذو الفشار وفندا

فلما سمعها ضرب بجرانه الارض وقال – صدقتِ ، صدقتِ · وعلى مسلمة لعنة الله · وعاد الى سيرته الاولى

ثم ماتت حبابة فجأة فابقاها اياماً عنده يترشفها ويتشممها حتى انتنت· فلامه الناس وعذلوه فاذن في تجهيزها ولم يستطع الركوب من الجزع ولا المشي فحمل علَى منبر علَى رقاب الرجال · واشتاق اليها بعد ثلاثة ايام من دفنها فقال – انبشوا عنها · فقال له اخوه مسلمة – نشدتك الله يا أمير المؤمنين انما هي امة من الاماء وقد واراها الثرى · فقال لا بدَّ من ان تنبش· فنبشت وكشف له عن وجهها وقد تغير تغيراً قبيحاً · فقيل له يا امير المؤمنين اتقِ الله ألا ترى كيف قد صارت · فقال – ما رأيتها قط أحسن منها اليوم· اخرجوها· فجاء مسلمة ووجوه اهله فلم يزالوا به حتى ازالوه عن ذلك ودفنوها وانصرف فكمد كمداً شديداً فمات بعد أيام ·

« العقد الفريد · والاغاني »

— سنة ٨٠٠ —

« دخلت بعض مقابر الاعراب ومعي صاحب لي · فاذا جارية علَى قبر كأنها تمثال لجمالها وعليها من الحلى والحلل ما لم أرَ مثله وهي تبكي بعين غزيرة وصوت شجي · فالتفت الى صاحبي فقلت – هل رأيت أعجب من هذه ؟ · فقال – لا والله احسبني اراه · وما أظنها الا تتعرض للناس · ثم قلت لها – يا هذه · اني اراك حزينة وما عليك زي الحزن · فانشأت تقول

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بي   بالاً ويكثر في الدنيا مواساتي
قد زرت قبرك في حليٍ وفي حللٍ   كأنني لست من اهل المصيبات
اردتُ آتيك فيما كنتُ اعرفه   أن قد تسر به من بعض هيآتي
فمن رآني رأى عبرى مولهة   عجيبة الزي تبكي بين اموات

الاصمعي — العقد الفريد

— سنة ٩٠٠ —

كان في جوارنا رجل له جارية يحبها غاية الحب · فمرضت · فجلس الرجل يصنع لها حيساً · فبينا هو يحرك في القدر اذ قالت الجارية تتألم من وجعها — آه ·

فدهش الرجل وسقطت المعلقة من يده وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى تساقط لحم اصابعه وهو لا يحس بذلك من شدة انشغاله بالام حبيبته ·

سمنون المحب — « الكشكول »

— سنة ١٠٤٠ —

كانت ولادة بنت المستكفي الشاعرة (وهي من سلالة ملوك الاندلس الامويين) واحدة زمانها في الجمال والادب · فتهافت عَلَى حبها الوزراء والشعراء ومنهم ابن زيدون · فكتبت عَلَى طراز ثوبها الايمن

انا والله اصلح للمعالي   وأمشي مشيتي واتيه تيها
امكن عاشقي من صحن خدي   وأعطي قبلتي من يشتهيها

وكانت مع ذلك مشهورة بالعفاف — «المقري».

— سنة ١٩١٠ —

··· فقالت غصن البان — ايها الشاعر الحبيب ، انت عزيز ، انت جميل ، انت لذيذ ، انت وان سكتَّ مطرب · نفسك اعانقها · نفسك اعبدها ··· في عينيك وفي شعرك انغام شجية · اسمعها اذا لمست شعرك · في اناملك ، في فمك ، في ساعدك ما يبهج قلبي الان ويطرب نفسي ويسكر كل جوارحي آه — انت جميل ايها الشاعر — انت جميل ····

وجثت امام مصباح تقبل يده وفمه وعينيه وتقول

— انت الليلة حبيبي ، بل انت سيدي ، وانا عبدتك ايها الشاعر ··· سيدي ، حبيبي ! غصن البان تجثو امامك وترمي نفسها بين يديك — صه ! لا تفه بكلمة واحدة ·

امين الريحاني — « زنبقة الغور »

في سنة لم نكن قط في التاريخ

··· في تلك الدقيقة ظهرت من وراء اشجار الصفصاف صبية تجر اذيالها عَلَى الاعشاب ووقفت بجانب الفتى النائم ووضعت يدها الحريرية عَلَى رأسه فنظر اليها نظرة نائم ايقظه شعاع الشمس · فرأى ابنة الامير واقفة حذاءه فجثا عَلَى ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلة ولما اراد الكلام ارتج عليه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه

ثم عانقته الصبية وقبلت شفتيه ، وقبلت عينيه راشفة المدامع السخينة وقالت

بصوت ألطف من نغمة الناي

-- « قد رأيتك يا حبيبي في احلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي فانت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حُكم عليّ بالمجيء الى هذا العالم . قد جئت سراً يا حبيبي لالتقي بك وها انت الان بين ذراعي فلا تجزع ! قد تركت مجد والدي لاتبعك الى اقاصي الارض واشرب معك كأس الحياة والموت . قم يا حبيبي فنذهب الى البرية البعيدة عن الانسان »

ومشى الحبيبان بين الاشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الامير ولا اشباه الظلمة .

جبران خليل جبران « دمعة وابتسامة »



الغزالي

لجبران خليل جبران

* * * * *

بين الغزّالي والقديس اوغسطينوس رابطة نفسية . فهما مظهران متشابهان لمبدإ واحد . رغم ما بين زمانيهما ومحيطيهما من الاختلافات المذهبية والاجتماعية . اما ذلك المبدأ فهو ميل وضعي في داخل النفس يتدرج بصاحبه من المرئيات وظواهرها الى المعقولات فالفلسفة فالالهيات

اعتزل الغزّالي الدنيا وما كان له فيها من الرخاء والمقام الرفيع وانفرد وحده متصوفاً ، متوغلاً في البحث عن تلك الخيوط الدقيقة التي تصل اواخر العلم باوائل الدين ، متعمقاً في التفتيش عن ذلك الاناء الخفي الذي تمتزج فيه مدارك الناس واختباراتهم بعواطف الناس واحلامهم

وهكذا فعل اوغسطينوس قبله بخمسة أجيال . فمن يقرأ له كتاب «الاعتراف» يرى أنه قد اتخذ الارض وما تيها سلماً يصعد عليه نحو ضمير الوجود الاعلى

غير انني وجدت الغزّالي أقرب الى جواهر الامور واسرارها من القديس اوغسطينوس . وقد يكون سبب ذلك في الفرق الكائن بين ما ورثه الاول من النظريات العلمية العربية واليونانية التي تقدمت زمانه وما ورثه الثاني من علم اللاهوت الذي كان يشغل اباء الكنيسة في القرنين الثاني والثالث للمسيح واعني بالوراثة ذلك الأمر الذي ينتقل مع الايام من فكر الى فكر مثلما تلازم

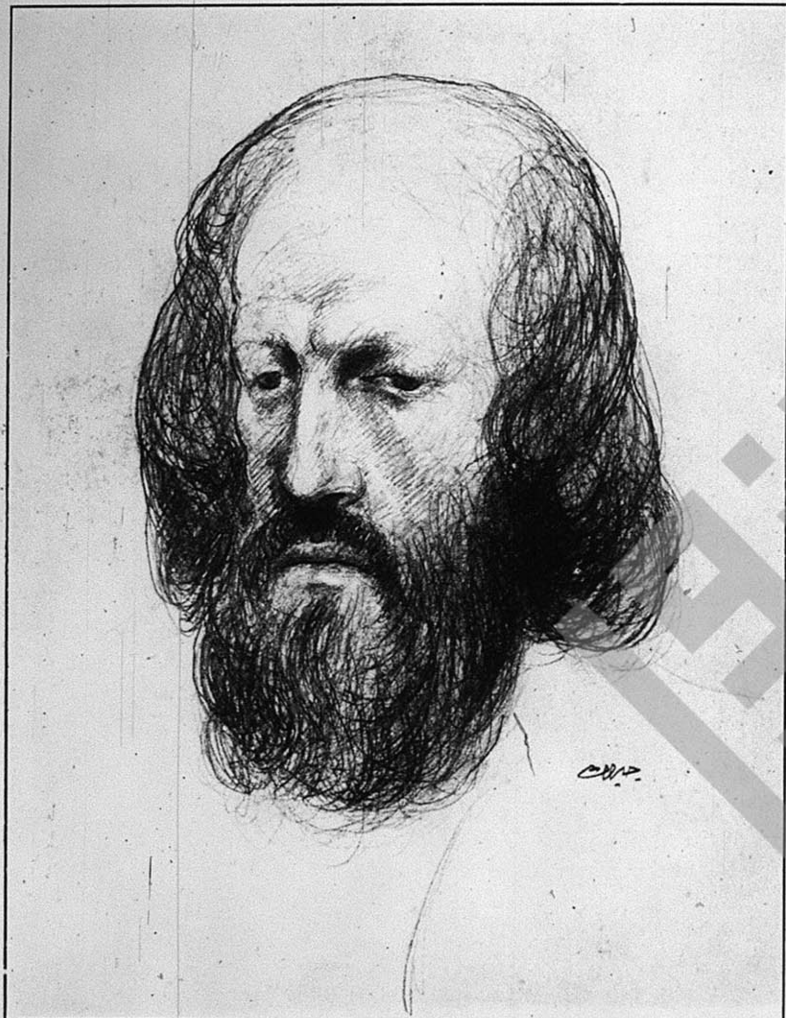
بعض المزايا الجسدية مظاهر الشعوب من عصر الى عصر ·

ووجدت في الغزّالي ما يجعله حلقة ذهبية موصلة بين الذين تقدموه من متصوفي الهند والذين جاءوا بعده من الالهيين · ففي ما بلغت اليه افكار البوذيين قديماً شيء من ميول الغزّالي ، وفي ما كتبه سبنوزا ووليم بلايك حديثاً شيء من عواطفه ·

وللغزّالي عند مستشرقي الغرب وعلمائه منزلة رفيعة · وهم يضعونه مع ابن سينا وابن رشد في المقام الاول بين فلاسفة الشرق · اما الروحيون بينهم فيحسبونه انبل واسمى فكرة ظهرت في الاسلام · ومن الغرائب انني شاهدت علَى جدران كنيسة في فلورنسا (ايطاليا) من بناء الجيل الخامس عشر صورة الغزّالي بين صور غيره من الفلاسفة والقديسين واللاهوتيين الذين تعتبرهم ائمة الكنيسة في الاجيال الوسطى دعائم واعمدة في هيكل الروح المطلق

ولكن الأغرب من ذلك هو ان الغربيين يعرفون عن الغزّالي اكثر مما يعرفه الشرقيون · فهم يترجمونه ويبحثون في تعاليمه ويدققون النظر في منازعه الفلسفية ومراميه الصوفية · اما نحن — نحن الذين لم نزل نتكلم اللغة العربية ونكتبها فقلما ذكرنا الغزّالي او تحدثنا عنه · نحن لم نزل مشغولين بالاصداف كأن الاصداف هي كل ما يخرج من بحر الحياة الى شواطىء الايام والليالي

جبران خليل جبران



الغزّالي — لجبران خليل جبران

تركتُ هوى ليلى وسعدى بمعزلِ   وعدت الى مصحوبِ أول منزل
ونادت بي الاشواق مهلاً فهذه   منازل من تهوى رويدكَ فانزل
غزلتُ لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد   لغزليَ نساجاً فكسرت مغزلي

« الغزّالي »

حتى ينقرض العبيد

الكاتب الرومي أو٠ل٠ دور

* * *

٠٠٠ جلس النبي العظيم موسى أقدر قائد تحت السماء في فسطاطه مكتئباً مفكراً والهواجس السوداء تحلق في سماء فكرته كأنها سرب من الطيور الشريرة السوداء ٠

وكيف لا يخلد الى التفكير وامامه من المعضلات ما يعجز عنه كل قائد حكيم !

فحواليه أني أجال طرفه صحراء مترامية الاطراف عَلَى واحاتها الصغيرة خيام ضيقة مسودة من الغبار والرمل المهلك يقطنها شعب اسرائيل نادباً سوء حظه ، لاعناً ما آلت اليه حاله من الضنك والشقاء ٠

زد عَلَى ذلك فتك الوحوش الضارية التي كانت تزعج الشعب ليل نهار ، وأذى القبائل المتوحشة التي كانت تشن الغارة من كل الجهات عَلَى شعب اسرائيل النزر الخارج جديدا من العبودية

بيد أن الوحوش الضارية والقبائل الفاتكة لم تكن لتضر بالشعب اكثر

مما أضرَّ به رؤساؤه — شيوخ اسرائيل

هؤلاء كانوا ينخرون قوى الشعب ونشاط شبانه نخر السوس والصداء فلقد كانوا منذ القدم عبيداً متأصلين في العبودية ، فلذلك لم يفهموا نزوع الشبان من بني جنسهم الى العبودية ·

ظهوهم اعتادت ان تنحني تحت ضربات عصي اسيادهم فلم تعد تستطيع الانتصاب · وقلوبهم الضعيفة خلت زمناً طويلاً من كل أثر للأمل فاحتل فراغها خضوع العبد الذليل ·

هؤلاء العبيد الشائبو الشعور المقوَّسو الظهور جاؤا الى موسى العظيم وقالوا له طالبين

— ارجعنا الى مصر ! ···

فاحتدم موسى غيظاً واشتعلت نار الغضب في طرفه ورفع يديه الى العلاء ساخطاً وقال ورنة اليأس والالم في كلماته

— الى اين تريدون الرجوع ايها التعساء ؟ العلكم نسيتم انكم كنتم هنالك عبيداً ! ····

فاجابوه قائلين بلهجة تشف عن عناد وتصلب

— لم ننسَ ، ولكنا كنا هنالك نأكل حتى الشبع !

فأرتج عَلَى موسى العظيم ولم يجد من الكلمات ما يعبر عن مراده ليقنع هؤلاء الشيوخ ان الحرية اسمى من الشبع ، وان المعدة لا تستطيع ان تسود عَلَى الرأس والقلب ·

فلقد كانوا عبيداً مولودين في العبودية · كانوا عمياناً منذ ولادتهم · فأنى له ان يفهمهم من أي الالوان شعاع الشمس ؟

عَلَى أن الشبان جاؤا اليه ايضاً وغدائرهم تتموَّج عَلَى رؤوسهم تنم عن جسارة وعيونهم تضطرم اقداماً وقالوا له

— ايها القائد ! سر بنا الى الامام ·

فقوَّم موسى قامته النبيلة القوية ورنا طرفه النسري مفعماً محبة واعجاباً الى عيون الشبان المتأججة نظراتها بنار الحماسة ·

ولكن سرعان ما هدأ اعجاب النبي وخمد طرفه · فانثنى بعد دقيقة فكر نحو الشبان وقال لهم وقلبه ينسحق حزناً

أكثير مثلكم في اسرائيل يا اولادي ؟ أو تعلمت ايديكم المتعودة حمل المعاول نقل السلاح ؟ أو حان للمغلوبين ان يتعلموا دحر العدوّ ؟

فاطرق الشبان وخرجوا من حضرته وجلين خجلين وعيونهم تبحث في الارض ·

اما موسى فخرَّ عَلَى الارض وصلى زمنا سائلا السماء ان تمنحه عقلا وقوة وتسدد خطواته ليعلم كيف يسير في هذا المأزق ·

ولكن السماء أصمت اذنيها ولم تصغ لصلاة النبي القائد

ولما ازف المساء وصمتت ضجة النهار وبسط القمر اشعته الهادئة الكئيبة فوق الصحراء غادر موسى المعسكر وابتعد عنه بضع مئات خطوة وطفق يصلي وحيداً حزيناً

وكان المعسكر مستغرقاً في سباته اما قائده فكانا هاجداً لم ينم تقطع قلبه شذر مذر ، وتدفقت دموعه سخينة عَلَى الرمل البارد. انما السماء ظلت صامتة . فعاد النبي العظيم الى فسطاطه عند الفجر وقد أودى به النصب وتزايد عذاب نفسه .

وهنالك فاجأته اشعة الشمس الباكرة وهو مستغرق في تأملاته وهنالك غادرته اشعة الشمس المتأخرة وهو لا يزال مستغرقاً في هواجسه وظل عَلَى هذه الحالة ثلاثة ايام .

وعاد اليه في اليوم الرابع شيوخ اسرائيل وقالوا له متهددين

— عد بنا الى مصر !

— فسألهم النبي متمرمراً

— اتودون الرجوع الى القيود والسياط ؟

فاجابه الشيوخ حانقين

— ان السياط والقيود خير من الموت. لا نريد ان نهلك هنا في البرية ..

وارادوا ان يتموا الكلام. واذا بموسى قد انتصب قويا مشمخراً كالاسد انتصب وقد شعر ان السماء اصغت اخيراً الى توسلاته وارسلت اليه في لحظة ناراً سماوية شددت نفسه كما حدث له يوم سار الى فرعون

وعلا صوت النبي الحكيم القائد العظيم وقد عادت اليه قوته الغابرة قائلاً

— تباً لكم يا شيوخ الضعف والفساد . تقولون انكم تأبون ان تموتوا هنا . ولكنكم ستقضون نحبكم في هذه البرية بالرغم منكم . ولن تبصروا

ارض الميعاد لئلا تسمموا جوّها بانفاس عبوديتكم المتنتنة ستموتون هنا أجمعين لانه لا ينبغي ان يكون في ارض الحرية عبد واحد . ستموتون هنا. فتقرض عظامكم بنات آوى وهي مثيلة لكم في الجبانة . ولن يدخل ارض الميعاد معي الا اولئك الذين يقدمون عَلَى مقاومة العدو ومهاجمته لا الذين يحنون ظهورهم له خاضعين . اذهبوا واعلنوا ذلك في اسرائيل .

. . . . .

وانتظر النبي العظيم اربعين سنة ريثما مات كل العبيد الشيوخ .

ودخل ارض الميعـاد شعب جديد طهرته المواقع العنيفة بنار الشجاعة والاقدام والحرية .



ظن هنود اميركا لما رأوا كولومبس ورفاقه ان ثياب هؤلاء قسم من ابدانهم . ونحن الان نخطىء خطأهم ونظن ثياب الناس قسماً من نفوسهم وعقولهم .

حتى الان لم يفز احد بكل ما رغب . ولم ينل كل ما احب



ابو العلاء المعري

*****

كان اعمى ، انما كان يرى   بنهاه فوق ما الطرف يرى
قوة النور بعينيه الى   عقله ارتدت فامسى مبصرا
ربما لاح له الكون بما   فيه من وهم الورى فاستصغرا
فثنى الطرف عن الكون الى   عقله اذ كان هذا اكبرا
ولعل النور من ذاك النهى   كان للطرف لهيباً مسعرا
فسرى كالكهربا في سلكها   في عروق العين حتى اثّرا
فانطفا الطرف ولم يقوَ علَى   حمل ذاك النور لما اسفرا
ذاك سر ما دريناه ومن   برأ الأنام يدري ما برا
حكمة الله بنا نجهلها   ربما رمزاً اتت او عبرا

. . .

ايها الراقد من الف مضت   لم يزل صوتك يعلو المنبرا
انت حي لم تزل ، إذ لم تمت   نفس من في الكون ابقى اثراً
ذكرك الخالد ما بين الملا   لخلود النفس امسى مظهرا

وسرت روحك في ارواحنا   كالدم المنعش في الجسم سرى
اخذت نوراً وأعطت وكذا   يأخذ البحر ويعطي الانهرا

. . .

من يفي وصف المعري حقه ؟   كل وصف دونه قد أقصرا
ليت عندي من ذكاه شعلةً   اجعل المورد منها المصدرا
فأخط الحق نوراً ساطعا   يذهب الشك ويجلو الفكرا
واريك العلم روضا مزهرا   واهز الفضل دوحاً مثمرا
ثم اجلو من نهاه صورة   في سما الآداب تبدو قمرا
فاذا ضلَّ الحجى لاح له   نور ذاك البدر هدياً في السرى
واذا رام معينا طالب   بلغ الورد ونال الوطرا
عند ما استهدى هدى حتى غدا   في ظلام الوهم فكراً نيّرا
صادقا ، حراً ، أبيّاً ، نابغاً ،   سابقاً من عاصروه اعصرا
قدح الفكرة في الناس كما   تقدح الزند وتوري الشررا
وعلا في البحث حتى انه   اوجد الشكك بافكار الورى
واذا طالعت من آياته   آية طالعت فيها سورا
نظر الناس وما قد صنفوا   شيعاً فاستاء مما نظرا
ورآهم خالفت اعمالهم   كل ما الدين به قد امرا
واذا الاطماع فيهم فطرة   كيف ترجو ان تزيل الفطرا !
كتم الامر زمانا ثم اذ   كبر الامر عليه جهرا

طرائف عربية

★★★★★

لما قدم خالد بن الوليد لافتتاح الحيرة قال لأهلها

— اخرجوا الي رجلاً من عقلائكم لاخابره

فاخرجوا اليه عبد المسيح بن نفيلة الغساني — وهو الذي بنى القصر — وهو يومئذ ابن خمسين وثلثمئة سنة

فقال له خالد — من اين أقصى أثرك ؟

قال — من صلب أبي .

فقال — فمن اين خرجت ؟

قال — من بطن امي .

فقال — فعلامَ انت ؟

قال — عَلَى الارض .

قال — ففيمَ انت ؟

قال — في ثيابي

فقال — ما سنك ؟

قال — عظم

فقال — أتعقل ، لا عقلت !

قال — اي والله ، وأقيد .

فقال — ابن كم انت ؟

قال — ابن رجل واحد

فقال — كم اتى عليك من الدهر ؟

قال — لو أتى عليَّ شيء لقتلني .

فقال — ما تزيدني مسألتك الا غمّاً .

قال — ما اجبتك الا عن مسألتك

فقال — أعرب انتم ام نبط ؟

قال — عرب استنبطنا . ونبط استعربنا .

فقال — فحرب انتم ام سلم ؟

قال — سلم .

فقال — فما بال هذه الحصون ؟

قال — بنيناها للسفيه حتى يجيء الحليم فينهاه .

فقال — كم أتت عليك سنة ؟

قال — خمسون وثلثمئة

فقال — ما ادركت ؟

قال — ادرت سفن البحر ترفأ الينا في هذا الجرف . ورأيت المرأة من اهل الحيرة تأخذ مكتلها عَلَى رأسها ولا تزود الا رغيفاً واحداً فلا تزال في قرى مخصبة متواترة حتى ترد الشام . ثم قد اصبحت خراباً يباباً.

وذلك دأب الله في العباد والبلاد

. . . . . .

كان اعرابي يجالس الشعبي يطيل الصمت. فسئل عن صمته. فقال — اسمع فأعلم. وأسكت فأسلم

. . . . .

قال قتيبة بن مسلم للحصين بن المنذر — ما السرور ؟

فقال — امرأة حسناء ، ودار قوراء ، وفرس مرتبط بالفناء

وقيل لضرار بن الحسين ما السرور ؟

فقال — لواء منشور ، وجلوس عَلَى السرير ، والسلام عليك ايها الامير

وقيل لعبد الملك بن صالح — ما السرور ؟ فقال—

كل الكرامة نلتها الا التحية بالسلام

وقيل لعبد الله بن الاهتم — ما السرور؟

— فقال — رفع الاولياء ، وحط الاعداء ، وطول البقاء ، مع القدرة عَلَى النماء .

وقيل للفضل بن سهل — ما السرور ؟

فقال — توقيع جائز ، وامر نافذ .

. . . . . .

دخل الاحنف بن قيس عَلَى معاوية بن ابي سفيان فاشار له الى الوساد فقال له — اجلس . فجلس عَلَى الارض . فقال معاوية — ما منعك يا احنف

من الجلوس عَلَى الوساد ؟ فقال — يا امير المؤمنين ، ان فيما اوصى به قيس بن عاصم المنقري ولده ان قال — لا تغشَ السلطان حتى يملك ، ولا تقطعه حتى ينساك ، ولا تجلس له عَلَى فراش ولا وساد ، واجعل بينك وبينه مجلس رجل او رجلين فانه عسى ان يأتي من هو اولى بذلك المجلس منك فتقام له فيكون قيامك زيادة له ونقصاً عليك . حسبي بهذا المجلس يا امير المؤمنين لعله ان يأتي من هو أولى بذلك المجلس مني . فقال معاوية — لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام .

لما أعلن معاوية البيعة ليزيد واجتمع الناس وقامت الخطباء اظهر قوم الكراهة . فقام رجل يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبراً ثم قال.

— هذا امير المؤمنين . (واشار بيده الى معاوية) فان مات فهذا . (واشار بيده الى يزيد) فمن أبى فهذا — (واشار بيده الى سيفه)

فقال له معاوية — انت سيد الخطباء .

. . . . .

قال سليمان بن عبد الملك — قد ركبنا الفاره ، وغازلنا الحسناء ، ولبسنا اللين حتى استخشناه ، واكلنا الطيب حتى أجمناه ، فما انا اليوم الى شيء احوج مني الى جليس يضع عني مؤونة التحفظ .

. . . . . .

كان ابو الهندي الشاعر منهمكاً عَلَى الخمر ، مغرماً بالشرب . فدخل حانة

خمار فشرب عنده الى ان غلب عليه السكر فنام · ودخل جماعة فتيان فرأوه عَلَى تلك الحالة فقالوا للخمار

— « ما حال هذا ؟ » فقال

— « طيب العيش » · قالوا

— « فالحقنا به »

فسقاهم حتى انتهوا الى حاله · فانتبه ابو الهندي فرآهم · فقال للخمار

— « ما حال هؤلاء ؟ » فقال

— « مبسوطون » قال

— « فألحقني بهم »

فسقاه حتى لحق بهم · وانتبهوا فقالوا له مثل ذلك الى ان مضت عليهم عشرة ايام ولم يلتقِ بعضهم ببعض · فانشد ابو الهندي في ذلك

ندامى بعد عاشرة تلاقوا — تضمهم الفتوة والسماح
رأوني في السرور عَلَى وسادي — يجاذب مهجتي ورد وراحُ
فقالوا — ايها الخمار من ذا ؟ — فقال — أخٌ يلذ له اصطباح
فقالوا — قم والحقنا وعجل — بنا إنَّا لمصرعه نراح
وحال تنبهي فسألت عنهم — فقال — أناخهم قدر متاح
فقلت له — فسرحني اليهم — حثيثاً فالسراح هو النجاح
فما ان زال ذاك الدأب منا — الى عشرٍ نفيق ونستباح
نقيم معاً وليس لنا تلاقٍ — ببيتٍ ما لنا عنه براح

فكاهات

كان القسيس يفحص التلامذة الصغار في التعليم المسيحي فسألهم

— بماذا كان ابشالوم يمتاز عن بقية الناس ؟

فصمت الصغار مدة وعجزوا عن الجواب اذ نسيوا ان ابشالوم كان غزير الشعر طويله · فاراد القسيس ان يهوّن الامر عليهم فوضع يده عَلَى شعر رأسه النادر وقال لهم

— والان فكروا جيداً · كان لابشالوم شيء غزير ليس لي انا منه الا شيء قليل · فما هو ذلك الشيء ؟

فاجابه الأولاد بصوت واحد

— عقل ·

درس في الاقتصاد

سأل فلاح اسكتلندي امرأته وقد همّ بالذهاب الى المدينة — اي نوع من القبعات تحبين لاشتري لكِ واحدة منها · ففكرت ملياً ثم قالت — اشترِ لي قبعة من القش حتى اذا عتقت عندي ولم تصلح للبس أطعمها البقرة

الدواء الشافي

العليل — انا مصاب بداء الأرق ايها الطبيب ولا يمكنني النوم متى

سمعت أقل صوت كمواء القطة مثلاً تحت شباكي

الطبيب – حسناً. لا بأس عليك. خذ هذا المسحوق فهو شافٍ قاطع

العليل – ومتى اتناوله ؟ وكيف ؟

الطبيب – لاتتناول منه شيئاً بل اذبه في قليل من اللبن وقدمه للقطة

عجائب غرائب

جلس ثلاثة من الشيوخ في ليلة قرٍّ يتحدثون بغرائب البرد والزمهرير فقال الاول – أجل ان البرد لشديد هذه الليلة ، ولكنه ليس بشيء ازاء البرد الذي حدث منذ ثلاث سنوات في مدينتنا اذ جمد البخار المتصاعد من القاطرة ووقع عَلَى الارض منبسطاً طبقات طبقات كالملاحف

فقال الثاني – هذا لا يُذكر بازاء ما شهدته من البرد سنة ١٨٨٧ اذ تجمدت المياه في المجاري والانابيب فكنا اذا اردنا الشرب نذيب الجليد عَلَى النار ولكن عندما كنا نرفع المذاب عن النـار لنشربه ننظر اليه فاذا به قد عاد جليداً .

فقال الثالث – وهذا امر بسيط تستخفون به حين اذكر لكم أعظم ما شهدته من البرد . حدث ذلك سنة ١٨٨٤ وكان التلفون قد مُدَّ حديثاً في بلدتنا فاشتدَّ الزمهرير حتى جمدت الكهربائية في اسلاك التلفون . وفي اليوم الثاني حدث دفء فذاب الجليد وافلتت الكهربائية من جمودها فظلت اجراس التلفون تقرع وتتكلم لنفسها مدة ساعات عديدة .



الأسيرة

— دعني أحكم ربطها ·

— لا بأس · دعيها وسيري بنا نهرب فليس الوقت وقت تضميد جراح

— اين نذهب الان يا ربي !

— اماه اعطيني خبزاً ·

— تمهل يا بني ولا تبك

— اماه !···

وسكتت الاصوات مرة اخرى

عند هذا ارتفع اللهيب فجأة حتى السماء وانار الارجاء كالبرق · فرأى الشاب عَلَى ضوءه كل سفح الاكمة· وابصر هنالك فلاحاً يسير مع زوجته وقد حمل عَلَى ذراعيه طفلاً والدم ينحدر من جبهته ويسيل عَلَى وجهه ثم يسقط نقطاً عَلَى رأس الطفل · وبجانبه تسير زوجته تقود بيدها طفلة صغيرة والاثنان يسيران رويداً وقد اوشكا ان يهلكا من التعب ·

ثم سكن اللهيب وعادت الظلمة فدثرت كل تلك النواحي بوشاح قاتم · وسمع الشاب اصواتاً جديدة من اسفل الاكمة ·

— ويلاه ما افتكهم · كم ذبحوا ···

— وكم حرقوا ···

— لم يتركوا لنا شيئاً ·

— وانقطعت الاصوات

يحدث احياناً كثيرة أن المصيبة الفادحة لا تهيج فينا شفقة عَلَى المصاب

أو حزناً عليه ، بل عكس ذلك — فتثير في القلب حقداً عليه وتأففاً منه · وهذا ما شعر به المسافر تجاه مارآه من المشاهد المؤلمة · فلقد رأى عن بعد ناراً متأججة تلتهم بيوت الفلاحين الآمنين وقد هلك اكثرهم تحت انقاض بيوتهم المحترقة ، والباقون منهم — وقد اتيح لهم النجاة من النار — خرّوا قتلى بخناجر البرابرة · وسمع باذنه عن قرب انات الوالد المضرّج بالدماء وشكوى الامهات الشقيات وقد أودى بهن التعب وعويل الاطفال ورأى بعينه هرب عائلة لا مأوى لها ولا مجير· أجل ، رأى وسمع كل هذا فظل رابط الجأش غير مبال كأنه من غير جبلة البشر · وكأني بامارات وجهه تهم بأن تنطق معبرة عما في ضميره صارخة تخاطب اولئك البائسين « هذا جزاؤكم ! تستحقونه وأزيد · انتم اعددتم لانفسكم هذه العاقبة المريعة · فالذنب ذنبكم لاذنب من يذبح ويحرق ويخرب ·»

ما أقسى صوت البغض الناتج عن حب ! حين يثور بغض الاخ عَلَى اخيه لا قصد الاضرار به بل لإصلاحه فيصيح به صوت البغض مؤنباً قائلا بلهجة أليمة — « لماذا لم تستعد للدفاع عن كيانك وحياتك ؟ »

هذا البغض يولد في النفس استياء نبيلاً قد يؤدي بالمرء الى حد التطرف ويصبح كالوحي المنزل قاطعاً لا مرد له فيحدد حياة الانسان ويحصرها في أحد اثنين — اما الحياة واما الموت ·

وهذا ما ثار ثائره في نفس الشاب المسافر فكان لسان حاله يقول — « من لا يدرك ، أو لا يريد ان يدرك شروط الحياة فذاك لا حق

له بالحياة · تلك شروط تتغير وتتكيف حسب حاجات البشر · فاذا كان المرء معتمداً في حياته عَلَى عقله وتدبيره فعليه ان يكون هذان الاثنان فيه قويين كافيين · اما اذا كانت حياته متوقفة عَلَى السلاح فعليه ان يحسن استعماله ويدخره عَلَى استعداد · فان حياة الانسان ميدان عراك لا رحمة فيه ومن لا يُحسن المقاومة يضطر أن يسقط ويهلك وينمحق ···»

عَلَى أن قلق الشاب المسافر لم يكن نتيجة هذه التصورات العميقة · فانه لم يكن يحسن التدقيق في فلسفة الحياة ، بل كان يفهم حياة البشر ويفسرها مستنداً في ذلك عَلَى ابسط المظاهر · فكان يعتقد ان الحمل اذا رغب في مساكنة الذئب فعليه اولاً أن يتسلح بانياب حادة كانياب الذئب لئلا يمسي فريسة الوحش الشرس · أو لم تدفعه مطالب حياته الى الصيرورة ذئباً فاضطر ان يضيره واصبحت له كل قسوة الذئب · منذ كان غلاماً اضطهده ذووه فهجر الاهل والمنزل كالابن الشاطر · واعرض عنه مواطنوه ورفضه ابناء جنسه ولم يقبله احد منهم وكانوا يهربون منه هربهم من الطاعون · فلم يبقَ له سوى ان يستسلم الى مشيئة الاقدار · فاصبح متشرداً يسعى في اثر رزقه وتدرّج حتى صار قاطع طريق لا يعرف الرحمة · واقسم ان يعاقب البشر شر عقاب لانه ذاق عقاب البشر ·

عَلَى انه بالرغم من احترافه اللصوصية كان لصاً شريفاً ولم يفقد نبالة الأسد · فالأسد لا يهاجم زعانف الحيوانات الضعيفة · ومتى اصاب

فريسة يبقي القسم الاكبر منها للوحوش الصغيرة الضعيفة ·

عشر سنوات مرت عليه وهو بعيد عن اهله · وها قد رجع الان لما علم ان وطنه في خطر ·

عاد لا ليخلص بلاده ، لانه كان يعلم حقّ العلم ان الفاً من أمثاله لا يستطيعون انقاذها ان لم ترد هي انقاذ نفسها· ولكنه كان يحب احدى المخلوقات الجميلة فعاد لينقذها -- تلك التي وحدها احبت من بين كل البشر ذلك الرجل الذي نبذه الجميع · هي كانت تعزيته الوحيدة في حياته· فقد كان يعلم وهو شريد طريد لا مأوى له ولا راحة ان له قلباً يسكنه -- قلباً لطيفاً حاراً بين ضلوع فتاة تحافظ عَلَى حبه · ولأجلها أحب الحياة واستسهل كل الاحزان والمتاعب في العيش · انما قد مضت عشر سنوات لم يسمع عنها او يرها

هذا ما دعاه الى الاعراض عما رآه حوله من اهوال النكبة غير مبال ودفعه الى السير حثيثاً في طريقه دون ان يفطن للراحة كأن شيطاناً شريراً يتأثره · ولكن الطبيعة لا بد من ان تتقاضى نصيبها · فلم تلبث قواه ان خانته بعد مسير ايام وسرى ليالٍ لم يذق فيها للنوم طعماً · فاستولى عليه نصب شديد وساورته سنة الكرى · فلما صعد احدى الربى جلس هنالك ليستريح هنيهة واذا برأسه قد ثقل بالرغم منه فانطبقت عيناه وسقط لا يعي عَلَى العشب اللين وقد صرعته الغيبوبة

٤

ولما استيقظ المسافر كانت نجمة الصبح قد ارتفعت في الافق وبدت طلائع الفجر القرمزية · فهاله انه صرف في النوم قسماً كبيراً من الليل بدلاً من ان يقضيه سائراً في الطريق · فتناول رمحه وبندقيته مسرعاً وسار في طريقه ·

وبينما كان سائراً في سهل أحبك المرتفع رأى في بعض الامكنة بقايا منازل الارمن يتصاعد منها الدخان خلال ضباب الصباح · ولم يكن ذلك ما يتصاعد عادة من مداخن بيوت السكان الآمنين في الاصباح ، بل كان دخاناً رهيباً مختلطاً باللهيب · ولما قارب احدى القرى رأى البيوت المحفورة أسسها في الارض قد اصبحت رماداً · وابصر جثثاً مخضبة بالدماء ملقية هنا وهنالك وقد مُثل بها أفظع تمثيل فشعر بكل هول ذلك الحريق الليلي · وعلم ان الانوار التي شاهدها ليلاً انما هي نيران القرى الارمنية التي أحرقها الاكراد ·

ولو كان سواه في محله لحرّكه هذا المشهد وأثر فيه أفظع تأثير · اما هو فلم يبالِ · فكأنه لم يرَ الا مشهداً اعتيادياً · أو كأنه علم من قبل ان هذا محتوم ان يصير · او انه كان نبياً فرأى بعينيه الروحيتين كل ما حدث قبل حدوثه بكل تفاصيله الدموية المريعة ، وقاسى من قبل آلاماً مبرحة لدى ما شاهده بالروح فخرجت من صدره كل نفسه وسالت من عينيه كل دموعه فلم تبقَ له قدرة للبكاء عَلَى ما يراه الان امامه من الفظائع · فوقف يجيل

الطرف ساكناً رابط الجأش بين الخرائب واشلاء القتلى المتكردسة وقد اختلطت واستحال فيها تمييز الطفل من الشيخ أو الامرأة من الرجل

رنا مرة اخرى الى الخرائب المتصاعد منها الدخان وسار في طريقه وكان يصادف اثناء مسيره قرى مخربة عديدة ومنازل تحولت الى هباء وجثثاً لا تزال دماؤها المهرقة حارة فيسير غير مهتم بها كثير اهتمام ...

سطع الشفق في الافق لهيباً ولمعت اشعة الشمس الدموية بين الغيوم البيضاء كالثلج . انما المضائق كانت لا تزال مظلمة . فكان المسافر يسير علَى شعابها متسلقاً كل علو شاهق ومنحدراً في الوديان الصخرية والمضائق الجبلية قاصداً قرية ايريسان .

واخيراً وصل الى مقصده . فرأى ان النار والسلاح قد فتكا بكل ما هنالك من بشر وعمار . فمشى بين الجثث برهة كأنه يفتش فيها عن شخص يعرفه . ثم وقف امام احد المنازل المحترقة وطفق ينظر اليه مستغرقاً في تأملاته في هذا المنزل ترعرع . هنا عاش والداه واختاه . انما لم يبق منهم احد الان فاثار هذا المشهد حزنه والتياعه فسالت من عينيه بعض دموع انحدرت علَى خده المصفر .

للفرح دموع ، وللحزن دموع . انما افظعها دموع الغضب . وهي هي الدموع التي ذرفها المسافر وانها لشبيهة بالمطر الممزوج بالعواصف والرعود والبروق . وبينا هو علَى تلك الحالة لحظ من خلال الدموع بضعة اشياء مبعثرة امام المنزل المحترق لم يتركها الغازون الا لانهم عجزوا عن حمل كل ما نهبوه

فعرفها كلها . وكيف لا يعرفها !

-- هوذا طنفسة كان يجلس عليها والده الشيخ ... وهوذا لحاف كان يتدثر به هو -- الشاب -- قبل ان يغادر منزله ... وها هنالك اناء كم شاهد امه تعجن فيه . وهنا علبة كم وكم رأى اخته تستعملها لحلب النعاج كل قطعة من تلك الامتعة هاجت فيه تذكارات قديمة . فاقترب منها واخذ يلقيها في المنزل الملتهب كأنه اراد بذلك ان يطرح الرعب في قلب اللهيب .

وبين هو كذلك اقترب منه فارسان كرديان مدججان بالسلاح الكامل يقودان وراءهما افراساً . فسأله احدهما

-- لماذا تلقي هذه الامتعة في النار . هي غنيمتنا وقد جئنا لنأخذها لاننا لم نستطع حملها كلها لأول مرة فأتينا الان بهذه الافراس لنوقرها .

فقال لهما الشاب غير مكترث .

-- يكفيكما ما تبقى من سواها . انزلا .

فنزل الكرديان عن جواديهما وشرعا يتهيئان لجمع الامتعة . فصاح بهما الشاب

-- اياكما والاقتراب من هذه الاشياء . فاني اريد احراقها كلها

-- ولماذا ؟

-- وساحرقكما معها اذا تجاسرتما ولمستما منها شيئاً.

-- انت ؟

— نعم ، انا !

وباسرع من لمح البصر لعب سيف الشاب الثقيل في رقبة احدهما واخترق خنجره صدر الاخر فسقطا قتيلين . فاحتمل الجثتين وألقاهما في النار . ثم انتخب لنفسه احسن الجوادين وامتطى صهوته وسار . ولما ابتعد عن المكان قليلاً نزل عن الجواد وخلّى سبيله . ثم سار في طريق ضيقة وعرة لا تسلك فيها الخيل .

واذ أصبح عَلَى مسافة بعيدة من قريته أبصر في السهل ما استلفت بصره عن بعد واستدعى انتباهه وجعله يدقق النظر . رأى نقطةً سوداء مبهّمة قد تميزت عما احاط بها عَلَى اشعة الشمس المشرقة . وكانت هذه النقطة القاتمة المجهولة بعيدة . فلما اخذ يقترب منها رويداً رويداً شرعت تتجسم وتكبر وتنجلي عن شيء قاتم مرتفع كأنه معلق في الهواء بين الارض والسماء . ففادر المسافر الطريق وصوّب خطاه نحوه تواً . ولما اصبح عَلَى مقربة تمكنه من التمييز تبين له ان ما كان يراه لم يك شيئاً واحداً بل اشياء عديدة تشبه الانصاب التي يضعها الفلاحون عَلَى عصيّ طويلة في الحقول لطرد الطيور والوحوش عنها وتخويفها . فدهش لأنه رأى عكس ما يعهد ، اذ شاهد الطيور والوحوش مجتمعة هنالك لا تهاب اللعين . فالغربان والعقبان حامت حولها تحط عليها هنيهة ثم ترتفع في الفضاء . والضباع وبنات آوى طافت بها تعوي عواء الفرح . فكأن هذه الكواسر كلها اجتمعت لتقيم هنالك مأدبة فخمة .

ولم يتضح للمسافر هذا المشهد كل الوضوح الاّ حين دنا منه قريباً فاذا بجثث مرفوعة عَلَى عصي طويلة مركوزة في الثرى وقد اخترقتها خرقاً . رفعتها الى هنالك ايدي الهمج حين كان اصحابها لا يزالون احياء اما الان فقد اصبحوا عَلَى الانصاب امواتاً لا رمق بهم . وهم ثلاثة ارتفعت جثثهم في الفضاء وحوّلت وجوههم الى جهة واحدة . فاقشعر بدن المسافر إذ عرف بهم كاهنين ومعلم مدرسة . وادركَ ان روح الغزاة الشريرة اخترعت لهم هذا العقاب وخصتهم به ارهاباً وانتقاماً . ثم شاهد ما حول الانصاب جثثاً فتك السلاح بها أي فتك . وزاد منظرها فظاعة ما نالها من فتك الوحوش الكاسرة .

وبينا المسافر ينظر الى هذا المشهد المريع اتصلت باذنه انات عميقة تشبه حشرجة الميت . فهرع الى مصدر الصوت واثار الدماء عَلَى الارض تقوده . فلما اجتاز نحو عشر خطوات اذا به أكبّ عَلَى الارض والقى بنفسه عَلَى شيخ شائب ملقى هنالك . وظلّ عَلَى هذه الحالة بضع دقائق .

عاد الشيخ المشرف عَلَى الموت الى نفسه قبل الشاب فقال بصوت ضعيف مرتجف — « الان خذ يارب نفسي فاني اموت في عناق ابني الحبيب»

انما الشاب ظلّ بلا حراك . فقال الشيخ

—« عشر سنوات غاب ولدي . والان جاء ليغمض عيني والده .»

وكان رأس الشاب ملقى عَلَى صدر الميت . فرفع الشيخ بيديه الضعيفتين رأس ابنه العزيز وقال .

— سرحت ، يا حبيبي سرحت ، انا اموت الان واباركك ...

حينئذٍ نطق الشاب بلهجة الغضب

— اسمع اولاً لعنات ابنك ثم مت . أجل لقد اصبت . فالابن الذي ظل مفقوداً عشر سنوات قد عاد الان ويرى نفسه مضطراً ان يغمض عيني ابيه إذ وجده مضرّجاً بدمائه مشرفاً عَلَى الموت . ولكن من يا ترى المذنب في فقدك ابنك ؟ انا لم اكن ابناً طائشاً شريراً . لم اكن سكيراً لم أكن شقياً متبعاً سبل الفحشاء والحرام . وجلّ ما اذنبته اني ولعت بنقل السلاح وركب الخيل والصيد . ولم تك تلك الامور التي اتبعتها الاّ من قبيل الملاهي البسيطة لاصبغة للشر عليها . انما انت ابغضت هذه الامور فبعثت بي الى الدير لتجعلني راهباً ناسكاً ، فهربت من هنالك . فعرضت علي المحراث والفاس والمنجل فقبلتها منك مسروراً ولكني لم أتخلّ عن السلاح ولم افلته من يدي ، لاني شاهدت هجمات الاكراد عَلَى حقولنا وعلمت انه ينبغي حمايتها بطريقة من الطرائق . غير انك اعترضت عَلَى ذلك وشرعت تعظني وتطلب مني ان اكون وديعاً خاضعاً اقابل الشر بالخير . وطالَ ما قلت لي

— « نحن الارمن يتوجب علينا انلا نرفع يدنا عَلَى احد وينبغي أن تظل رووءسنا محنية والسنتنا صامتة ....» كذا كنت ترشدني . ولكني ابصرت وعلمت انه كلما بالغت في احناء رأسك يزداد عدد الضربات المنهالة عليك . وكلما بالغت في الصمت يبالغون في شتمك . ورأيت

الناهبين يسطون عَلَى مقتنيات شعبنا فينهبونها ولا حرج فيمسي هوءلاء فقراء جائعين لانهم لم يرفعوا أيديهم عَلَى اخوانهم . فلم أعد أومن بالسماء ولا سيما حين رأيت انواع الشرور تُصنع عَلَى الارض علناً فلا تكترث السماء لها . فحنقت عليّ حنقاً شديداً فطردتني من بيت ابائي واجدادي ونبذتني ورذلت ابنك المتمرد الذي لم يرد ان يمشي عَلَى خطة ابائه واجداده بل كره خضوع العبودية وأنف من أن يقبل ارجل اعدائه ....

فقاطعه الاب بصوت مفعم حزناً وقال

— واين ذهبت بعد هذا ؟ وماذا كنت تصنع ؟

— صرت في اول الامر صياداً متنقلاً . انما ليس بين صيد الوحوش وقتل البشر سوى خطوة واحدة . فصرت أفتك بالناس . ولماذا لا أوسعهم قتلاً ونهباً وأسراً ؟ فلقد رأيت ان من يفعل ذلك من البشر يصبح اسعد حالاً من سواه ويعتبره الناس ويخشونه . ولقد وجدت ان الودعاء والصالحين من الناس الذين لا قلب لهم لقتل نملة واحدة تعساء حقيرون لا سلطة لهم عَلَى اهلهم ومقتنياتهم حتى عَلَى نفوسهم .

وصمت قليلاً ريثما استراح ثم قال

— ارأيت يا ابي . ألم تكُ وديعاً كالحمل ؟ فماذا افادتك وداعتك ؟ وهذان الكاهنان المرفوعان عَلَى الانصاب وهذه الجثث المبعثرة ما حولنا ألم يكونوا كلهم ودعاء صالحين ، ألم اعرفهم كذلك ؟... ولكن صلاحهم حين تصادم الخير والشر وجهاً لوجه لم يغنهم فتيلاً .. ان الظلم الكامن في

الانسانية يحملنا عَلَى ان نكون اشراراً تجاه الشر ، وابراراً تجاه الخير ...

فقال الشيخ بصوت ضعيف

— لا تعذبني يا ولدي . دع والدك التعيس يموت بسلام . لسانك يطعن نفسي ولا طعن رماح الاكراد ...

-- كلا . لن تموت بسلام . لا يجسرنَّ ان يموت بسلام من عاش بسلام السلام لم يخلق لنا ولا لاكواخنا ، ولا لقبورنا ...

فقال الاب سائلاً

-- أو كنت هنالك ؟ أما شاهدت بيتنا ؟

-- بلى . رأيته يحترق .

-- وامك ؟ ... واختاك ؟ ... واخوك ؟ ...

-- لم أجد في القرية الا الجثث .

-- ليتك عجلت قليلاً واتيت لاسعاف ابيك الضعيف وانقاذ عائلته

-- ما فكرت بذلك قط . كنت اعلم ان النار والسيف سيلتهمان كل ما في هذه الجهات ولكن ماذا كنت استطيع ان افعل لو اتيت ؟ ومن يستطيع ان ينقذ شعباً يسن بيده سلاح اعدائه ؟ نحن ، لا الباغون ، أعددنا لانفسنا قيود العبودية ! ... الاباء صنعوها وقيدوا بها ابناءهم ...

ألا فلتحل اللعنة عَلَى اولئك الذين انتزعوا منا النفوس الحية ووضعوا مكانها قطعة من اللحم الميت ! ...

وليكن ملعوناً كل من علمنا ان نبقى ودعاء ، مسالمين ، خاضعين ،

صابرين ! ....

بين كان الشيخ في نزاعه كان ابنه القاسي يصب اللعنات عليه وعَلَى الاباء والاجداد فكأنه روح شرير هب ليقبض آخر نفس ممن اعطاه الحياة والروح . ولم يتمالك الشيخ ان قال بصعوبة شديدة

— كفاك . العلك اتيت لتلعننا ؟

— كلا . لم آتِ لذلك . فان اباءنا لا يستحقون هذا الشرف . جاء بي الى هنا جاذب جذبني نحو نفس عزيزة تحبني . هي فتاة احبت الابن الذي نبذه ابوه وامه واقرباؤه بل أحبت اللص السفاك الذي ترتاع منه قوات الجحيم — والمجرم الذي تبغضه الملائكة والشياطين معاً . فجئت لانقذها .

سقط رأس الشيخ عَلَى يدي ابنه وقد وهن فلم يسمع الشاب كلمات ابيه الاخيرة القائلة — « انت تلعنني . اما انا فاباركك . » قال الشيخ هذه الكلمات واطبق عينيه . اما شفتاه فظلتا تهمسان كلمات صلاة انتهت بهذه الكلمات — « رباه ، اغفر لا بني » ....

واسلم الروح

ولبث الابن زمناً لا يفلت جثة ابيه الهامدة من عناقه ودموعه تهطل عَلَى شعر ابيه الشائب الابيض كالثلج الملطخ بالدماء . وهي ثاني مرة ذرف بها الدموع منذ عودته الى وطنه .

ولما اصبحت جثة الشيخ باردة رفعها ووضعها في حفرة دون ان يغسل

عنها الدم ثم احتفر التراب بخنجره وردم به الحفرة واخذ حجارة من صخرة قريبة فوضعها عَلَى الضريح وهو يقول

— « نم بسلام يا رجل الصلاح · وليكن ضريحك قريباً من المذبح الذي ضُحيت عليه أنبل رجال وطني · وعسى ان تكون هذه المذبحة درساً موءبداً وتحذيراً لرجال المستقبل ، فتذكرهم بماضيهم السيء وتعلمهم وجوب بناء الحياة عَلَى أسس قوية ثابتة ····وعسى ان تفتح دماء الاباء الطريق للابناء نحو الخلاص

٥

لما انتهى المسافر من دفن ابيه في قبره الحقير عاد يتابع سيره مسرعاً مستغرقاً في هواجسه كأنه رجل قد فقد شعوره · ولا غرو اذا هاله الفكر خشية ان يكون قد فقد حبيبته عَلَى اثر فقدانه اباه وامه واختيه واخاه · فطفق يجد السير مسرعاً كل الاسراع · ولكن قرية حبيبته كانت لا تزال بعيدة دونها قطع المسافات · فاخذ المسافر اختصاراً للطريق يصعد في شعاب صعبة العبور ويخترق مضائق غطتها آجام ملتفة من الاشجار والانجم يستطيع ان يختبىء فيها جيش برمته · وبين هو يسير في تلك الاماكن سمع بغتة صوتاً مبهماً لم يميزه · ثم اصغى فاتضح له ان صوتاً يدعوه باسمه منادياً —«سرحت سرحت !» ففكر في نفسه — من هذا يا ترى · ومن ذا الذي يناديه في هذه الجهات ولا أحد يعرفه فيها ؟ يستحيل ان يكون هذا صوت احد رفاقه الذين سرحهم منذ يومين وبعثهم الى جهات متفرقة في شوءون شتى · ثم رأى امكان وجود احدهم عَلَى مقربة فوضع اصبعه في فيه وصفر صفرة مصطلحاً عليها ·

فاجابه صوت من قريب · فاستنكره وقال في نفسه —لا احد منهم هنا · ثم انزل بندقيته عن كتفه ووقف متطلعاً الى ما حوله · فتكرر الصوت يناديه — « سرحت ! » ثم أحسّ بيدين تطوقانه وشعر بقبلات عديدة عَلَى وجهه وقال الرجل الذي عانقه بالكردية ·

— ألا يعرف سيدي خادمه ؟ فاجابه المسافر

— عرفتك يا ميستو · — وطفق يقبله مسروراً ·

وكان ميستو هذا راعياً لأبي سرحت واصله كرديٌّ من شيعة اليزيديين · وكان رفيقاً لسرحت في صباه يشاطره العابه · ولما غادر هذا بيت اهله كان ميستو شاباً نشيطاً مخلصاً في الخدمة لاهل البيت · اما الان فاصبح رجلاً شديداً العزم تلوح عَلَى وجهه امائر البسالة والمروءة ، انتصب امام سرحت متسلحاً بسيف وبندقية ومسدس · وكان سرور سرحت بلقاء هذا الخادم الامين عظيماً ، ولا سيما وقد أمل ان يعلم منه ما ينقصه من الاخبار

— تباً لي من أحمق ! — لفظ ميستو هذه الكلمات وضحك ضحكته الرنانة · — لو لا قليل لتعذرت عَلَيَّ معرفتك · فعندما شعرت ان رجلا يسير اختبأت خلف الشجرة وصوبت بندقيتي ····وهممت باطلاقها لو لا اني لمحت جبينك فقلت لنفسي — هذا سيدي — وانزلت البندقية ··

لقد تغيرت يا سيدي حتى انه لتصعب معرفتك عَلَى الشيطان نفسه

وعاد ميستو فهجم عَلَى سيده يعانقه ويقبله ·

فقال سرحت — أأردتَ ان تقتلني ياميستو ؟

— أردت ان اسلبك رمحك ، فان رمحي انكسر . وتعلم انه من العار عَلَى الكردي ان يسير بغير رمح .

— وكيف انكسر رمحك ؟ .

— تخاصمت والاكراد عندما سلبوا نعاجنا . تباً لهم من كفار فقد اخذوا الجميع ولم يتركوا واحدة . حتى مهرك اخذوه يا سرحت — ذلك المهر الاشهب . ولو رأيته أي جواد اصبح ! كنت اسقيه واعلفه كل يوم واقول لنفسي — قريباً سياتي سيدي ويركبه . اخذوه الكفار ... ولم يتركوا نعجة واحدة ....

— انعاجنا هذه التي تتكلم عنها؟

— اجل نعاجكم ، والا نعاج من ؟ ميستو لا يملك نعجة واحدة . اصابتني رصاصة في رجلي . ولكني مع هذا تمكنت من قتل بضعة اشخاص ..

— واين كنت ذاهباً الان ورجلك جريحة ؟

— كنت ذاهباً الى تلك الناحية ...... بشأن ....

— وما هو ذلك الشأن ؟

— أفٍّ . لساني لا يطاوعني لأقول ....لعنة الله عَلَى الاكراد اجمعين ......سيدي والدك ....

ولم يستطيع ميستو ان يعمل حديثه فتدفقت الدموع من عينيه وطفق يبكي كالطفل .

— قتلوه ...اعرف ذلك . ولكن لماذا كنت ذاهباً ؟

ماذا يقولون في الفنون

قالت جريدة السائح الزاهرة

دخلت مجلة « الفنون » في عامها الثالث . وقد صدر الجزء الاول منها (عدد آب) حافلاً بالمقالات العصرية والقصائد الرنانة والروايات الجميلة الوطنية وكلها من اقلام خيرة الكتاب الوطنيين كالريحاني وجبران ونعيمه وسواهم . ومزينة بالصور الفنية النفيسة التي امتازت هذه المجلة الرقية بها .

وقد جُعل بدء سنتها في اول آب بدلاً من حزيران لتأخر صدورها لاسباب مطبعية . فجعلت ادارتها مطلع العام في آب لئلا يضيع عَلَى القراء شيء من الاعداد والتلافي التأخير المطبعي .

فنرجو للفنون انتشاراً ونجاحاً تستحقهما لانها في عرفنا المجلة الوحيدة التي تهتم بنشر ما يفيد في ترقية الروح الوطنية والاداب العصرية ، وتجاهد في سبيل تأدية رسالتها الادبية الى العالم العربي . وعدا ذلك فهي تضاهي بمواضيعها وجمالها اشهر مجلات اميركا واوربا واشتراكها زهيد بالنسبة الى ما يتمتع به قراوءها من الفائدة والجمال .

ومحررها ومنشوءها نسيب عريضه الذي يعرفه قراء السائح كما يعرفه قراء الفنون شاب اشتهر بقلم سيال وذوق سليم بفن الصحافة وله مهارة خاصة بعرض ادبيات كتاب الغرب لقراء العربية فمن هذا الوجه له فضل يُذكر عَلَى الادب العربي . فللفنون تهانئنا بعامها الجديد ودعاوءنا الحار بان تتقوى لتخدم امتها الخدمة الادبية الحقة

وقالت جريدة « فتاة بوسطن » الغراء

دخلت مجلة الفنون الراقية في سنتها الثالثة وقد وصلنا العدد الاول منها فاذا هو يحتوي عَلَى عدة مقالات نفيسة بقلم بعضٍ من اقدر كتابنا في المهجر واقل ما يقال عن هذه المجلة الراقية انها الوحيدة من نوعها في عالم الادب العربي وهي مثال من نتائج اعمال المهاجر السوري عند احتكاكه بالتمدن الغربي فلمحررها الاديب نسيب عريضه ومديرها الغيور راغب متراج يجب تقديم الشكر عَلَى ما يبذلانه من العناية في اختيار المواضيع الجميلة محافظة عَلَى مركز هذه المجلة بين القراء وفي المحيط الادبي فنرجو لها كل تقدم ونجاح

. . . . . .

وقالت جريدة الكاوي الغراء

كثيرة هي الصحف التي تتداولها ايدينا ولكن قليلة هي التي نطالعها بلذة واشتياق والفنون هي واحدة من الصحف القليلة الجديرة بالمطالعة لما تحويه من المواضيع المفيدة والابحاث النافعة .

وصلنا الجزء الاخير لسنتها الثانية فألفيناه حاويا كل ما لذَّ وطاب لتغذية النفوس الراقية .

فننصح مشتركينا عَلَى الاشتراك فيها ونحن لهم من المخلصين

. . . . . .

ونشرت جريدة السهام الغراء الاسطر الآتية للاديبة صاحبة الامضاء

مجلة الفنون — اذا جئت اظهر استحساني لمجلة « الفنون » الزاهرة اخاف ان لا يطاوعني قلمي لذلك اكتفي بقولي ان الفنون افضل مجلة عربية حتى اليوم

تصفحت بضعة اعداد منها وانا معجبة مسرورة من مقالاتها الشائقة التي يحررها اكبر كتّابنا في المهجر .

فجدير بكل اديب واديبة مناصرتها وبكل مكتب تزيينه بها . فانا كمحبة للاداب احب مجلة الفنون وافتخر بها وادعو لها بالنجاح والعمر الطويل

مونتريا — كولومبيا « نظيره صوفان »

حقاً اني لا ألتذ بمطالعة مجلة او جريدة عربية كما ألتذ « بالفنون » . وحين تتأخر عن ميعادها يحالفني الضجر فاظل انتظرها بفروغ صبر

خوخوي عارف ابرهيم حيدر

اذا قدم انسان كأساً من الماء الى اخيه الظمآن يستحق شكراً عَلَى عمله حين لا تعب في جلب الماء ولا قيمة له . فكم بالحري يجب علينا ان نشكر من يقدمون لنا كل شهر ينبوعاً عذباً به تحيا النفوس وتنزه الافكار والاخلاق . فكل ما في فوءادي من الشكر اقدمه لمجلة الفنون لاتعابها وسهرها الدائم واهنئها بعامها الثالث راجية لها كل ما تتمناه .

مونتريال كندا سلمى كساب

نعم هي نور مضيء في عالم الادب . هي درّة ثمينة تحوي اغلى وافخر طعام لطلاب العلم والادب .

بتسفيلد ماس اديب بشاره كرم

لست مداجياً ولا مارقاً لانكر ما سببته لي مجلتكم من تثقيف الخلق

وتحسين السريرة . فاقبلوا شكري وتأكدوا اخلاصي لمجلتكم التي ليس لي طاقة عَلَى المبيت قبل ان اتم قراءتها .

مانشستر — نيوهمشر	سعيد فرنسيس

طالعت مجلتكم بكل ارتياح وامعان فوجدتها مدبجة بنفثات اقلام اشهر كتبة المهجر حافلة بالمقالات العلمية والتاريخية والروايات الادبية والفكاهات العصرية مما ينور العقول ويلذ القارئ .... أجل ان شهادتي لا تزيد «الفنون» الطائرة الصيت شهرة وانتشاراً . ولكن هي الضمائر تأبى الا ان تبوح بما توحيه اليها القلوب . وهي الحقائق لا بدَّ من ان تقال كيفما تقلبت الاحوال

بوسطن	عطا خطار معلوف

سرني في مجلتكم مقالات لطيفة تسر الخاطر

باساخي — اكوادور	مخائيل انطون يزبك

بها من كل معنى رقيق وفكر دقيق

دترويت — مشيغن	فارس مخائيل

يسرني ان ارى عروس المجلات في المهجر قطعت المرحلة الثانية من جهادها الحالي . فاهنئكم بجهادكم الشريف لا بل اهنئ نفسي بفنون يُفاخر بها . وبكنز ادبي لا يثمن .

اوبرن — نيويورك	فكتوريا عيد

بعد ان تصفحت اعداد الفنون المجلة الشهيرة الوحيدة من نوعها في العالم العربي تحققت ان آدابنا الشرقية اصبحت تضاهي آداب الغربيين الحديثة

فنعم المجلة مجلتكم . حقاً يجب ان تكون في كل منزل سوري لنستفيد من اسلوبها العصري ومنافعها الجمة ونصل بها الى الدرجة التي نتوخاها من الرقي والعمران .

سياغو دي اڤيلا — كوبا	عبد الاحد لويس ساسين

كلما تناولت عدداً من الفنون أجده أجمل مما سبق . فكأني متنزه دخل حديقة مغروسة باتقان وترتيب تدل عَلَى تفنن صاحبها فرأى فيها من الورود اصنافاً فكان كلما همَّ ان يجني وردة وقد ظنها أجمل ما هنالك يرى غيرها أجمل منها .

بوسطن — ماس	اولغا ايوب

حريٌ بكلّ سوري ان يأخذ العدد الخامس من الفنون ويدرسه درساً مدققاً . فانه يوءثر بالعواطف اشد التأثير .

لتل رك — اركنساس	محمد سلمان بو كروم

حازت الاكثرية في المباراة الادبية لعدد ايار الماضي «رواية زنبقة الغور» لامين الريحاني . وفي الشعر «الى الامام» لنعمه الحاج

بعد شهرين تنتهي المباراة الادبية وتوزع الجوائز عَلَى اربابها . فالمرجو من المشتركين ان لا يهملوا التصويت حين صدور هذا الجزء والذي يليه لمن يستحسنون مقالته او قصيدته حتى ينال الجائزة من يستحقها في رأي الاكثرية لا في رأي افراد قلائل .

اهداء الفنون

تقديراً للمناصرة الادبيـة والغيرة الوطنية اللتين يظهرهما كل معزز للادب الحديث تنشر ادارة الفنون في هذه الفسحة اسماء الافاضل الغيُر الذين تكرموا باهداء الفنون واسماء اصدقائهم وانسبائهم المهدى اليهم . وهو اقرار بالفضل لذوي الفضل نسطره في سجل خالد ناطق .

اسم المهدي　　　　اسم المهدى اليه

يوسف ضو (مريدا يو كاتان للمكسيك) — الى مخائيل اسطفان (المكسيك)

يوسف ضو　.　.　.　— الى ن . ابوعسلي (المكسيك)

يوسف ضو　.　.　.　— الى فيليب ضو (كولومبيا)

يوسف ضو　.　.　.　— الى يوسف مخائيل (المكسيك)

يوسف ضو　.　.　.　— الى جورج وفرج (المكسيك)

اسكندر بك ناصيف (مريدا يو كاتان المكسيك) — الى جمعية الشبان السوريين

الشيخ عفيف الناصيف (بتسبرغ بنسلفانيا) — الى الانسة سميره كنجو (في المدينة نفسها)

الشيخ مخائيل ابراهيم (بتسبرغ بنسلفانيا) — الى حنا خوري (اوهايو)

فارس نبكي (كونلسفيل بنسلفانيا) — الى عزيز نبكي (دنبار بنسلفانيا)

الانسة روز عطيه(جانستاون بنسلفانيا)— الى حنا مقدسي (تكساس)

انطون ملوك (كولومبيا) الى خليل ملوك (كولومبيا)

يوسف صيقلي (كولومبيا) — الى قسطنطين صيقلي (تكساس)

اسكندر مشنوق (نيويورك)— الى مخائيل مرشد عبود (بونيس ايرس)

رشوان قرنفلي (الاكوادور) — الى جرجي عبود (الاكوادور)

جواد عريضه (نيويورك) — الى نجيب جاويش (واشنطون العاصمة)

زخور العيسى (مناسن بنسلفانيا) — الى عبود العيسى (بنسلفانيا)

الانسة نصره حنون (باترسن نيوجرزي) — الى زكيه غراب (فيها)

من طانيوس مخائيل (وست فرجينيا) — الى حسين مصطفى (فيها)

فرح نصور (بروكلن نيويورك) — الى ليان فضول (البرازيل)

توفيق صباغ (تشيلي) — الى مرهج وعبد الكريم محيش (سانتياغو تشيلي)

محيش اخوان (تشيلي) — الى مسلم ويونس حداد (سانتياغو تشيلي)

محيش اخوان (تشيلي) — الى هرماس اخوان (سانتياغو تشيلي)

نجيب معلوف (اوكدن يوتاه) — الى الانسة لوسي معلوف (المدينة نفسها)

جورج ومخائيل صليبا (شلتون كناكتكت) — الى سليم وابراهيم صباغ (المكسيك)

خير رزق جبور (سكرنتون بنسلفانيا) — الى نعمه السروجي (كرين باي — وسكنسس)

الانسة سميه عطيه (شيكاغو) — الى الانسة رضى خوري (المدينة نفسها)

سعيد جعار (سانتو دومينكو) — الى جعار ابناء عم (تشيلي)

المباراة الادبية
وجوائز الفنون

ابتدأت المباراة الادبية عَلى صفحات الفنون بعدد ايلول الماضي وستنتهي بعد صدور ١٢ جزءاً من تاريخ ابتدائها ؛ فينال جوائزها ثلاثة من الادبآء

الجائزة الاولى — مائة ريال — لصاحب المقالة الاولى في الفوز

الجائزة الثانية — ٥٠ ريالاً — لصاحب المقالة الثانية في الفوز

الجائزة الثالثة — ٢٥ ريالاً — لصاحب القصيدة الفائزة

(الحكم بالجوائز) حين يصل عدد الفنون الى المشتركين يستطيع كل منهم بعد قراءته ان ينتخب منه المقالة التي تعجبه والقصيدة التي تنال استحسانه فيصوّت لها ويرسل حكمه الى ادارة المجلة كل شهر بشرط ان يكون دافعاً بدل الاشتراك سواء كان شهرياً او سنوياً فلما تنتهي الاصوات الى الادارة تعلن اسم الفائز بموجبها في العدد الذي يلي التالي · ومتى انتهت السنة تعيد الفنون نشر اسماء الفائزين في التصويت الشهري ويصير انتخاب ثلاثة منهم لتدفع اليهم الجوائز ·

(شروط المباراة) لكي يصح الحكم بالجائزة لاية مقالة او قصيدة يجب ان تكون مبتكرة غير منقولة عن لغة اجنبية او منشورة سابقاً ، وان تصل الى الادارة تباعاً بأسرع ما يمكن وميعاد آخر ما يقبل منها ١ تموز سنة ١٩١٧ ·

لا تنسَ ان تعطي صوتك كل شهر لمن تستحسن كتاباته

ايسترن دراي كودس كمباني

يتاجون

باصناف الدراي كودس والملبوسات وجميع البضائع الرائجة

دعائم هذا المحل التجاري الموءسس منذ سنوات هي —

الاستقامة في المعاملة

ارضاء الزبائن وتلبيتهم

الذوق في اختيار البضائع الجديدة الرائجة

الخبرة في العمل والمسواق

كل هذه تكفل لزبائن المحل مما يعود عليهم بالربح والنجاح ويضمن لهم الراحة في التجارة اذا اتكلوا عليه في طلب ما يلزمهم من البضائع

ولا شك في ان الكلام وحده لا يقنع كالتجربة · فجرّب بطلبية واحدة يتضح لك الامر · ولدى الامتحان يكرم المرء او يهان

Eastern Dry Goods Co.

1103 Fifth Avenue

Pittsburgh, Pa.

ملوك اخوان

الى أصدقائهم وعملائهم

النجاح بالتحسين وليس بالبقاء علَى حالة واحدة

نحن نسعى بالتحسين في كل يوم وفي كل معمل من معاملنا · موءسس ورئيس هذا المحل احدنا سليم ملوك الذي اخترع ورسم جميع الرسمات المتداولة اليوم بين ايدي المواطنين من مديرا و كلوني وفيله وفنيس وغيرها لا يألو جهداً في استنباط الاصناف والرسمات الجديدة البديعة التي سيظهر اكثرها قريباً في عالم التجارة ·

في مديرا

في ايطاليا

في فرنسا

وفي غيرها من اقطار العالم عيون ساهرة وعقول واعية لخدمة المصلحة وخدمتكم ·

فلا تهملوا صالحكم باغفالكم هذه الامور بل داوموا مخابرتنا او زيارتنا كي لا تفوتكم الفرص السانحة ومن يعش يرى المحل الرئيسي

MALLOUK BROTHERS

47-49 WEST STREET

NEW YORK

الى تجار اميركا الجنوبية

— محل ميخائيل عريضه في نيويورك —

قد وسع دائرة اشغاله المعروفة واصبح يتعاطى تصدير البضائع الاميركية من جميع اصنافها الى سائر الانحاء

وهو مستعد

أن يقوم بخدمة كل المحال التجارية السورية في اميركا الجنوبية والوسطى وجزائرهما استعداداً يرضي اصحاب البيوت الكبيرة والصغيرة التجارية

مقدرة هذا المحل المالية ،

وخبرته بالسوق الحالية ،

ومعرفته الاصناف المرغوبة ،

وتسوقه البضائع من معاملها رأساً ،

جعلته ان يحوز ثقة كثير من المحال التجارية الكبرى في اميركا الجنوبية في وقت قصير

فاكتب اليه

مستعلماً — أو مستشيراً — أو طالباً — أو مجرباً .

ولك الخيار بعد ذلك ان تعامله او تعامل سواه

MICHAEL N. ARIDA

118 W. 22nd Street New York

الزيتون في كاليفورنيا

ذوقوا واحكموا

ليس من ينكر كثرة الصعوبات التي نصادفها من جراء الحرب الاوربية بانقطاع المواد الغذائية السورية عن هذه البلاد الاميركية . ولما كنا قد اعتدنا في السابق ان نحصل عَلَى كل اصناف السمانة العربية من سوريا لم نعد نبالي بالاهتمام لايجادها هنا مع ما كنا نتحمله من الصعوبات والمصارفات في مسألة الشحن . عَلَى انه وقد حالت الظروف في هذه الايام دون الحصول عَلَى متمنياتنا وسدّت الطرق من كل جانب في وجوهنا فتوهم ابناء الوطن ان لا لذة تعادل لذة الواردات الوطنية وجدنا غب الامتحانات والاهتمامات التي نجريها دائماً وحباً براحة وخدمة عملائنا الكرام طريقاً لارضائهم فقد ذهب احدنا الى كاليفورنيا حيث اهتمّ بضمانة كروم الزيتون هناك وصرنا نستورده الى محلنا الخاص فنخرج من انواعه زيتوناً اسود ومرصوصاً بزعتر ومن كان في شك فما عليه الا التجربة كما وانه عندنا جميع انواع السمانة السورية وسائر المشروبات الروحية وهذا عنواننا .

T. K. MALOUF & CO,

79 WASHINGTON ST., NEW YORK, N. Y.

محل حداد وعطيه

اذا كنت بحاجة الى ورق للف او خيطان او علب كرتون او اكياس او اي جنس كان من الورق وما يصنع منه · او اذا كنت بحاجة الى ورق مكاتيب ومغلفات ودفاتر وكل لزوم المحلات التجارية خابرنا اولاً ونحن نرضيك بالاسعار والمعاملة والاجناس الجيدة · كل هذه الاصناف موجودة عندنا بكميات كبيرة دائماً ومن كل القياسات ·

كذا لكنعلن الذين خارج الولايات المتحدة اننا نشحن الورق الى اي جهة كانت بكميات كبيرة او صغيرة وخصوصاً الى اميركا الوسطى والجنوبية ومصر · اطلبوا الاسعار مع كافة التعليمات ·

HADDAD & ATEYEH

84-86 Washington St. New York City

ملكه نفش

قابلة رسمية حائزة عَلَى شهادة الحكومة واجازتها ولها من خبرتها وممارستها اعواماً عديدة ما يكفل الاعجاب والرضى ويعود بالارتياح عَلَى من يحتاج اليها وهذا عنوانها

M. NAFASH

288 Hicks St. Brooklyn N. Y.

Telephone Main 3473

حافظ عَلَى صحتك لكي تطول ايام حياتك اية من الوصايا العشرة

خالص اجرة البريد

ما نقول ونبيع

سنت	ريال	من جربنا عرفنا ومن لم يجربنا فليسال عنا ويرى صدق
٢٥	٠	الشربة العجيبة اقوى من زيت الخروع
٣٥	٠	حبوب الحياة للدكتور فنديك لازالة وجع الراس والدوخة وامساك الباطنة
٢٥	٥	حبوب للقوة المنحلة ولتقوية الاجسام الضعيفة
٢٥	٢	شربة لقطع الدودة الوحيدة
٣٥	٠	مزيج سائل لازالة الشعر من الجسم
٦٥	٠	صبغة شعر سوداء خالية من حجر جهنم
٣٥	٠	بودرة لعرق الرجلين
٢٥	٢	دواء لانماء الشعر وتقويته ولازالة القشرة من الراس
٦٥	٠	دواء لازالة النمش والكلف من الوجه
٦٥	٠	دواء لمنع شرب الدخان
٠٠	١	ماء زهر اصلي مكفول

صيدلية شركة فلسطين

PALESTINE DRUG CO.

28 RECTOR STREET, NEW YORK

حديث وجيز

أأنت من مدخني السيكارات ؟

اذا أجبت « بنعم » فهاك سوءالاً آخر ·

مـا هو النوع الذي تدخنه ؟ — وقبل ان نسمع جوابك نسألك ان تسمح لنا ان نقول

اذا كنت تدخن السيكا رات البرصونية فلا حاجة لشرحنا لك عنها ، وان كنت تدخن غيرها فجربها وقابل بينها وبين سواها

السيكارات البرصونية مصنوعة من التبغ التركي الخالي من الغش

انها من اقدم واشهر انواع السيكارات المعروفة ، ومدخنوها يشهدون لها بجودة وسلاسة طعم دخانها ·

وانك تحصل عليها متى شئت فاطلبها تجدها لديك حالاً ·

A. N Barson & Co.

40 West Street New York

محلنا هو

معرض السجاد العجمي والتركي الاصليين وطريقتنا في المعاملة معروفة عند اصدقائنا التجار في السجاد · اما المقدرة فللناس ان يحكموا فيها · وكل ما نقوله اننا نرضي وقادرين عَلَى مرضاة المستقيمين والمجتهدين

—(نعمه تادرس)—

N. TADROSS & CO.

Telephone 8885 Madison Square.

225 Fifth Avenue, New York, N. Y.

الفنون

السنة الثالثة

AL-FUNOON

AN ARABIC REVIEW OF LITERATURE AND ARTS

Published Monthly by

Al-Funoon Publishing Co.

72 Trinity Place

New York

ANNUAL SUBSCRIPTION $5.00

SEPTEMBER 1917

VOL. III **NO. 2**

"Entered as second class - matter June 16, 1916, at the Post Office at New York, New York, under the act of March 3, 1879"